السنة الثانية عشرة العدد ٨ آب سنة ١٩٠٩

المشرق

السنة الاولى للدستور العثماني

نظر للاب لويس رنزفال اليسوعي

كان اليوم الثالث والعشرون من الشهر المنصرم يوماً بهيجاً بل عيداً حافلاً اراد كلّ العثمانيين ان يقضوهُ في الافراح والمسرّات. وكانت الاوامر العليَّة قد صدرت من دار السلام الى جميع انحاء الولايات بان يكون ذلك النهار موسماً شائقاً تتناصر فيه كل عناصر الدولة وأممها المتفرّقة لرفع الادعية واداء فرائض الشكر للعزَّة الالهيَّة على ما انعمت بهِ من انقلاب الامور بعد العناء الشديد والاسر المديد ففُكَّت اغلال العبوديَّة ورقصت القلوب بهجةً بعد اطلاق سراح الحريَّة. وما كانت الرعايا لتنتظر هذه الاوامر بل بادرت القلوب الى اتمامها بالشوق قبل العمل. فما لاح ذلك اليوم العظيم حتى تجدَّدت تلك المظاهر الفخيمة التي جرت في العام الماضي ورسخ ذكرها الى الآن في صفائح الالباب. فلبست المعاهد الرسميَّة حللها القشيبة وازدانت الاسواق بالرايات الوطنيَّة وتحوَّلت ظلمات الليل الى مناور متوقدة واسرجة نيّرة. وكان السرور شاملاً والناس يتبادلون عبارات التهاني ويتمنَّى بعضهم لبعض اطيب الاماني في ظل العلَم العثماني

نعم يحقّ للعثمانيين ان يطلقوا العنان لجذل الصدور ويستأنفوا بواعث الطرب وبشائر السرور التي أسكرتهم بنشوتها في العام الماضي بعد ان ركبتهم بل كادت تسحقهم فوادح الظلم مدَّة ٣٢ عاماً. فأعلن جهاراً ذلك الدستور الذي كان السلطان السابق يُذعر منهُ خوفاً ويُستطار بهِ لبُّهُ روعاً حتى انَّ مجرد اسمهِ كان يذيقهُ الامرَّين فقام وقعد وحطَّ ورفع ليردَّ عنهُ ذلك العدوَّ الاحمر حتى تجاوز في دفاعهِ كل اعتدال واقترف في كسر شوكتهِ كل المحظورات ولو تدبَّر الامر بالرويَّة والفكرة ورأى بعين

السكينة خير العباد وصوالح البلاد لما اضطر الى ان يباشر تلك الحرب العوان التي جلبت عليه البوار. فانهُ بعد ان اقفل سنة ١٨٧٦ مجلس المبعوثين وردهم الى مواطنهم خاسرين كان يستطيع ان ينزع سخيمة القلوب ويكتسب رضى الاهلين بما يُقدم عليهِ من الاصلاحات ويأخذ بهِ من المشروعات الوطنيَّة والاعمال العموميَّة وتوطيد اركان العدل والانصاف في جهات الدولة. . فلا شكَّ انهُ لو فعل ذلك لنال شكر مرؤوسيهِ وجعل اريكتهُ ثابتةً ساميةً وعُدَّ ملكهُ من اسعد واشرف ملوك آل عثمان

وكان لهُ اسوة في هذه السنين الاخيرة بقيصر روسيَّة الذي الجاءتهُ الاحوال الى ان يمنح الدستور لرعاياهُ وكاد المجلس الاول يثلّ دعائم عرشهِ فعرف بحسن سياستهِ ان يضع حدودًا للثورة والفتن وتوخى استمالة القلوب بما استدركهُ من الخلل وباشرهُ من الاصلاحات ومنحهُ من الانعامات فادخل روسيَّة في طور جديد بعد تخفيف وطأة الحكم المطلق على مناكبها

ومهما كان الامر فانَّ الممالك المحروسة تفتخر اليوم بدستورها ويجدر بها ان تقيم الاعياد في عودة تذكارهِ

ولكن لا يليق بان تكون افراحنا عقيمة فانَّ العاقل هو الذي يستفيد ايضًا من تجربتهِ فيلقي النظر على ما مضى ليصلح ما فرط منهُ ويواصل عملهُ بخبرة وادراك فيكون الماضي ضامنًا للمستقبل. وعليهِ قد عزمنا على تلخيص ما جرى في هذه السنة الدستوريَّة الاولى لنتخذهُ عبرةً ومثالًا ونتلافى النقص بالحزم والنشاط

*

اذا ما اعتبرنا الانقلاب السياسي الذي صرنا اليهِ وبحثنا عن نتائجهِ في هذا العام الاول عثرنا على ثلاثة امور خطيرة من شأنها ان تكدّر نوعًا نظر المعتبرين وان لم يكن الدستور علّتها الفاعلة وانما تحمَّل تبعيَّتها بعد الحكم السابق فاغتنم اهل الدول المجاورة تلك الفرصة ليلقوا دلوهم مع الدلاء ويشووا في الحريق سمكتهم

واوَّل ذلك ما مُنيت بهِ الدولة من فَقد سيطرتها على بعض البلاد المجاورة. فانَّ ارباب الامر في ٢٣ نيسان منحوا بلغارية استقلالها التام على شروط رضيت بها الدولتان. وكذلك بلاد البشناق والهرسك التي لم تزل تقرُّ للدولة العليَّة بحقوق الولاية والتقدُّم دخلت نهائيًا في حكم النمسا بعد اتفاق الدولتين على تعويضات تقدَّم بها النمسا الى

تركيًا . وقد ارادت اقريطش ان تنتهز هذه الفرصة ايضًا لتقطع علاقاتها مع تركيا وقد رفعت آخرًا العلم اليوناني الّا انّ عملها حتى يومنا لم ينل رضا الدول الاوربيّة . ولو صمّم اهل تلك الجزيرة على عزيمتهم لأنّهم يسعرون البلاد بحرب تدور عليها دوائرهم وترمي اوربّا في ارتباكات جديدة لا يعلم احد ماذا تكون نتائجها الوبيئة

وقد زاد في الطين بلّةً ما حصل بسبب اعلان الدستور من الفتن في نواحي الدولة فانّ اصحاب المشاغب اذ سمعوا كلمة الحريّة الفتّانة ورأوا ضعف أُولي الحكم الجديد الذين لم يسمح لهم الوقت بتنظيم الولايات وتمكين دوائرها علّقوا نفوسهم بالفوز واثاروا الشغب في بعض الانحاء . وكان بعضهم من الرجعيّين لم يشأوا الاعتراف بالانقلاب الدستوري كما جرى في جهات الحجاز واليمن وبلاد الجزيرة وثغور فارس فلم تزل الحكومة الى يومنا هذا توجه قوّاتها العسكريّة الى اولئك الثائرين لتطفئ جمرتهم وتكسر شوكتهم

وكانت هذه الاحوال المضطربة داعيًا للضنك وتوقّف دولاب الاشغال وخمود التجارة فضلًا عن سوء حالة الدولة الماليّة التي تتهدّدها بالتقهقر وتصدُّ ذوي العزم والتدبير عن المباشرة بالاصلاحات . وقد رضي كثيرون من اهل الهمّة ان يتحمّلوا في سبيل خير العامّ عدّة ضحايا . وكان اولّهم جلالة السلطان الجديد الذي حبًا بالاقتصاد قنع بان يخفّف عن عاتق الدولة كثيرًا من نفقات اسلافه فأبعدت الحكومة من الخدمة أُلوفًا من العمّال ودقّقت النظر في مصاريف الدار السلطانيّة واتباعها فاكتشفت ما كان هناك من التلاعب وتبذير الاموال فعُوقب اصحابها وكذلك اعيان الدولة أُعيد النظر في رواتبهم فجعلت لها قواعد ثابتة لا تتجاوز حدود وظائفهم . ومع كل هذه الاصلاحات لا يزال الخطر محدقًا بمالية الدولة لاسيما ان عدّة ولايات تأخرت عن دفع الاموال الاميريّة والخراج ثم لزم الحكومة ان تدفع للجند رواتبهم المالوفة بعد ان تأخرت مدّة عن ادائها فكل ذلك ممّا يكدّر صفاء الدستور ويوجب القلق والاضطراب وهو ثمرة الحكم السابق

ويوجد مع هذا ما هو أدعى للخوف وأجلب للكدر وذلك ما تلوّثت به شوارع الاستانة من دماء الوطنيين كما جرى منها سيول في احدى جهات الدولة اعني ولاية آطنه . فانّ الخطباء وكتبة الجرائد كانوا يعدّون من اسبغ نِعَم الخالق على الدولة ان

الدستور مدَّ رواقهُ على البلاد وضرب اطنابهُ بين اهاليها شاؤوا ام ابوا دون ان تُهراق نقطة واحدة من الدم. فأملوا ان تبقى الصحيفة المخبرة بذلك الانقلاب غرّاء عذراء لا يشوبها خبر مكدّر. لكنَّ تلك الآمال ما لبثت ان ذهبت ادراج الرياح بما حدث من الفجعات في اواسط نيسان المنصرم. فانَّ اهل الدولة المنقلبة كانوا يترصَّدون لآل الدستور ويطلبون غفلتهم ليوقدوا معالم الفتنة ويصلتوا سيف العدوان ويحيوا ما ظنّوهُ ميتاً من اسباب البغض والشحناء بين الاجناس والعناصر التي تتألَّف منها الممالك العثمانية فكان لهذه الاحداث صدى حزن في قلوب محبي تركيا حتى ارتاب البعض في أمر الحكم الجديد وفي مقدرتهِ على تأليف الارواح وتوحيد الكلمة. وكذلك قامت بازاء مجلس المبعوثين ومجلس الاعيان مسائل جسيمة لا يُستطاع الفرار عن خوضها واولها هل يجري التساوي التامّ في الحقوق بين كل العثمانيين على اختلاف عناصرهم واديانهم وهل الامر ممكن في الحالة الحاضرة عمليًا

فهذا المشكل العظيم لا مناص من حلّهِ ولا نعلم كيف تكون نهايتهُ. فان نكبات آطنه قد اظهرت انَّ بين العنصرين الاسلامي والنصراني ولاسيما الارمن ثلمةً واسعة يصعب سدّها اذ لم يمرّ على الفئتين غير اشهر منذ تصافحتا وتعاهدتا الوداد وصرختا مرحّبتين بالحرّية والمساواة والاخاء. فكيف تغيّرت الاحوال بعد زمن قليل فثار المسلمون الارتجاعيّون على من لا يشاركهم في دينهم وارتكبوا من الجرائم ما انسى فظائع البوكسر في الصين. فان قال القائل انَّ الارمن كانوا يكيدون المكايد فاستحقّوا هذه المعاملة بدسائسهم اجبنا انَّ الحكومة المحلّية كان بوسعها ان تتولّى حكم المجرمين فتأخذهم بآثامهم دون ان يُطلق العنان لفئة على اخرى ولحزب على آخر فتلك الطامّة الكبرى التي لا يُقبل لها عذر. وكانت الحكومة السابقة قد اعتادتها تحقيق غاياتها وكثيرًا ما سلّطت عنصرًا على آخر اذا ما خافت نفوذهُ. وقد اقرَّ عقلاء المسلمين بهذه الغاية السياسيَّة السيئة ولاموا الحكومة في اتخاذها ورأوا ان مثل هذه الاعمال اشبه باعمال الامم الهمجيَّة. وكفى برهانًا على قولنا ما كتبهُ منشئ المنار في الجزء الثالث من المجلّد الثالث عشر (ص ٢٤٠) حيث قال بعد ذكر ثورة العاصمة: «وقد ولَّدت الثورة بالعاصمة فتنةً في ولاية آطنه فهبَّ الترك لذبح الارمن وهو عمل يبرأُ الاسلام منهُ ومن فاعليه ولكنَّهُ لا يسلم معهُ من طعن الامم. فبهمجيَّة هؤلاء الاقوام صار المسلمون حجَّة على

الاسلام». وقال غيرهُ مثل قوله . وقد افاد البشير في بعض اعداده (ع ١٩٢٠) اقرار احد اعضاء اللجنة المعيَّنة لتحقيق امور آطنة الاخيرة بابيكيان افندي حيث قال: «قد دلَّ التحقيق انَّ انصار الحكم المطلق في آطنه اظهروا الاستياء منذ اعلان الدستور ووطَّنوا العزم على ذبح غير المسلمين وهذا امر ثابت لا ريب فيـه تؤيد صحَّتهُ الاوراق الرسميَّة والقضائيَّة . . . ومن الثابت انَّ الحكومة المحليَّة اشتركت فيها وخصوصاً الوالي جواد بك والقمندان رمزي باشا ومتصرف جبل بركات ناصيف بك الخ» . ثم اقرَّت اللجنة بعد ذلك بانَّ عدد القتلى لا يقلّ عن عشرين الفاً

فترى من ثمَّ انَّ امور آطنة انَّما كانت خلفةً من سياسة عبد الحميـد الفاسدة وحكمهِ المطلق الجائر اراد ان يورثها من بعدهِ الدستور فيطبع فيهِ سمة الدم . فلما نكأ تلك القروح المندملة نفث في القلوب سمَّ النفور والمشاحنة وجعل الأمة طبقاتٍ ممتازة فيها السيّد والمسود والعبد والمعبود بدلًا من ان ينفي من الافكار تلك الامتيـازات ويؤلف بين قلوب الافراد في خدمة الوطن كما هو شأن الحكم الدستوري لأنَّ الدستور مبنيٌّ على المسـاواة . فان لم يُراعَ التساوي انقلب الحكم فأشبه عهد الظلم بـل يستفحل الشرّ ويتفاقم الجور اذ انَّ المظلوم لا يصبح فقط تحت رقّ عبوديَّة الواحـد كما كان في عهد الملك المطلق بل يستهدف لسهام قسم من الأمَّة ويستعبد للفرقة المتغلّبة التي قبضت على ازمَّة الحكم

وهذا الداء العقيم لا رجاء لحسمهِ ولا امل لمداواتهِ بل يزيد فساداً ويؤول بالبلاد الى الخراب ما دام البعض يخلطون بين الوطنيَّة والدين ويتعصّبون للاحكام الشرعيَّة ويجعلون الدستور نعمةً خاصَّة بدين على خلاف غيرهِ من الاديان كأنَّ العثماني لا يستطيع أن يخدم وطنهُ ما لم يُكرَه على تغيير دينهِ والمجاهرة بالدين المحمَّدي فهـذا مبدأ باطل ينقض الدستور نقضاً تامًّا اذ في مقدَّمة البنود التي يشتمل عليهـا الدستور انَّ الاديان كلَّها متساوية بازاء الدولة . فلا بُدَّ لهذا المبدأ الاساسي ان يرسخ في ذهن الجميـع ولولاهُ اصبحت الوطنيَّة اسـماً بلا مسمًّى ولفظاً دون معنى

فقل لي رعـاك الله ان كان النصراني والدرزي واليهوديّ لا يعتبرون الراية التي يمشون تحت ظلها كراية عموميَّة تعمّ مفاخرهـا المسلمين وغيرهم افيمكنهم ان يدافعوا عنها ويسفكوا في ساحة الحرب دماءهم دونها . لا لعمري مـا لم يتأكَّدوا انَّهم

يخدمون وطنهم العثماني وليس ديناً من الاديان اذ ليست الحرب جهاداً عن الدين بل دفاعاً عن حرمة الاوطان وصوناً لحقوقها من المعادين سواء كانوا مسلمين او نصارى

أفلا ترى الدول الاوربيّة الدستوريّة كيف تفرق بين الاحزاب السياسيّة والوطن وبين دين الدولة المالكة والسلطة العموميّة الحاكمة. فهاك فرنسة كان اهلها يخضعون لملوك مطلقي الحكم الى السنة ١٧٨٩ ثم انقلبت الحكومة الملكيّة الى حكومة جمهوريّة ولا تزال الاحزاب في تناقض وخصام يتنازعون السيطرة والتقدّم الّا انهم يفرقون بين الاحزاب وبين الوطن واذا رأوا بلادهم في حاجة الى خدمتهم تكاتفوا وتناصروا وساروا الى العدوّ كرجل واحد سواء كانت رايتهم بيضاء سوسنيّة كما على عهد الملوك ام مثلّثة الالوان كما هي اليوم

ودونك مثالاً آخر في انكلترة البروتستانيّة وارلندة الكاثوليكيّة فانّ هذه طالما ناءت تحت عبء شقيقتها الظافرة ولا تزال حتى يومنا تدافع عن حقوقها الدينيّة والمدنيّة ولكن هيهات ان ترى الجنديّ الانكليزي ينفر من رصيفه الارلندي في خدمة الوطن بل يمشي كلاهما اليد باليد الى اقاصي العالم حتى مصر والهند وجهات اوقيانية للذود عن حرمة الاوطان والدفاع عن صوالح تلك المملكة الواسعة التي تكاد تجمع بين القطبين. وترى في البلاد كلها الارلندي والانكليزي والاسكوتي والغالي يتقاسمون الاحكام وقيادة الجند وترتيب الامور دون اختلاف البتة على اي دين كانوا ولا يراعون في كل ذلك الّا الاهليّة والاستحقاق

فكذلك المالك العثمانية اذا ما شاءت ان تترقّى في معارج الفلاح وتنتظم في سلك الدول المتمدّنة عليها ان تستعين بما جمل الله من القوى في افرادها فتؤلف بينهم وتضرب الصفح عمّا يفرقهم من العناصر والجنسيّات والاديان فلا ترى فيهم الّا ابناء مخلصين في حبّها متفانين في خدمتها لا غاية لهم الّا رفع شأنها واعلاء مقامها بينما هي لا تتعرّض لهم في اتمام واجباتهم الجنسيّة وفرائضهم الدينيّة

ولدولتنا اسوة صالحة في الولايات المتّحدة يمكنها ان تأتسي بها. فانّ تلك البلاد مع سعتها وكثرة اقطارها واختلاف اديانها راقية في سلّم النجاح لا يفوتها شيء من العزّ والفخر وانّما قوّتها بجمع كلمتها واتفاق عناصرها المتباينة لا يختصّون امتيازاً براحد دون آخر ولا يُراعون ديناً بمعزل عن غيره وان كان الدين الاوفر عدداً هو الدين

البروتستاني فانَّ الدين الكاثوليكي معزز مكرَّم حتى كاد يبلغ الاحصاء الاخير ١٤ مليونًا بعد ان كان عددهم لا يتجاوز ربع المليون في اوائل القرن التاسع عشر. ويسير مع الجند الكاثوليك برًّا وبحرًا كهنة برواتب معلومة يساعدونهم في اتمام فرائضهم الدينيَّة ويرافقونهم في ساحة القتال ويحرّضونهم على تعزيز شؤون الوطن والذود عن حماه بتضحية كل نفس ونفيس

فليعلمنَّ الدستوريّون ان الحروب الدينيَّة اسوأ الحروب واوخمها عاقبةً فان طرقوا ذلك الباب لن يمكنهم ايصاده الَّا بعد اللّتيا والتي . ولنا في الامور الحديثة شاهد عياني على قولنا فانَّ عبد الحميد اذ أيس من حفظ سلطانه ظنَّ — وبئس الظنّ — انهُ يفوز بالمرام اذا آثار الشواعر الدينيَّة فجعل الشريعة كشعار في افواه انصاره فقتلوا ما قتلوا من الضبَّاط الابرياء. وقلبوا ولاية آطنة ظهرًا لبطن فملأُوها سبيًا ونهبًا وحرقًا وذبحًا الَّا انَّ الله جازاهُ بعمل يدهِ لمَّا افتى شيخ الاسلام بعزلهِ وتمليك اخيهِ رشاد فكانت تلك الفتوى مبنيَّة على الشريعة ايضًا فكانت الشريعة سيفًا ذا حدَّين قتلتهُ كما قتل بهِ الوفًا من المظلومين

فعلى العثمانيين ان يتحقَّقوا كما تحقَّق انتّهم ووجوه ملاهم انهُ لا خلاف بين الدستور والدين. وان خصصنا بذلك الاسلام وجدنا بان تعاليمهُ لا تنافي الحكم الدستوريّ كما بيَّن الامر كثيرون من الكتبة المسلمين بعد الانقلاب السياسي الاخير في مجلّاتهم وجرائدهم. وقد افادتنا اخبار الاستانة في اواسط الشهر المنصرم بان الصدر الاعظم اوعز الى شيخ الاسلام أن يُعدّ منشورًا يثبت فيه من القرآن والحديث انَّ على المسلمين ان يعتبروا المسيحيين وطنيين مساوين لهم بالحقوق. وقد كان جلالة السلطان الجديد محمَّد رشاد صرَّح بذلك في منشوره الاوَّل الرسمي في تاريخ ١١ ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ حيث قال في خطّهِ الشريف:

« وانَّ اماني لا ترمي الَّا الى التذرّع بالوسائل الضامنة للحريَّة والمساواة والعدل لكل طبقات رعاياي دون استثناء ومراعاة جميع الاحكام الشرعية والقوانين مراعاةً تامة . . . وتوفير الاسباب اللازمة لايصال مملكتنا الى مرتبة الترقيّات والتكمّلات المستعدة لها ماديًّا وادبيًّا . وقانون الاساسي كافل لتحقيق هذه الرغبة الصحيحة . . . »

وما قلناهُ عن الاسلام يظهر في النصرانيَّة ظهور الشمس في كبد السماء فانَّها لا

تنفي هيئة من السلطة الحاكمة وتعتبر كل سلطة من الله ولو تصفحت تاريخها وجدتها تؤاخي كل ضروب الاحكام فطالما عاشت مع الملوك والسلاطين سواء كانوا ذوي سلطة مقيدة ام مطلقة كما أنها لم تأنف من الجمهوريات والحكومات التمثيلية كلما جرت على سنن العدل لا تبخس حقوق الله لأنها لم تزل تكرر على رؤوس الاشهاد انهُ ينبغي على الانسان أن يؤدي ما لله لله وما لقيصر لقيصر. ولا ترى في كتابات الاحبار الرومانيين الرسمية كلمة واحدة تُشعر بان الكنيسة ترذل الحرية والمساواة والاخاء . اللهمَّ اذا رُوعيت معانيها الصحيحة الموافقة للعقول السليمة وانما تنت فقط عنها معانيها الفاسدة (اطلب المشرق المقالات التي نُشرت في هذه الالفاظ السحرية في العام الماضي ٧٨٧ و ٨٦٣ و ٩٣٢) وقد بيّن كل ذلك لاون الثالث عشر في براءاته الرسولية المخلّدة الذكر التي تصدع بالحق ولا تُبقي ريباً لمستريب

فان كانت الاديان متفقة على هذه المبادئ والروح العصري والتمدّن الحالي واصول العقول السليمة ترضى بها وتستحسنها وتجد في مراعاتها حياة البلاد وخلاص العباد فما بالنا نعود فنشحذ شفار البغض ونريش سهام العدوان كما جرى في قرون الهمجية . فانَّ تركيا بلغت الى عهد صلح وسلام لا حاجة لها في الفتوحات والغزوات فكفاها فخرًا أنها تملك على اشرف بلاد الله واعزها ذكرًا واكرمها شأنًا واكثرها خيرًا ونعمة فعليها الآن ان تصون تلك البلاد وتحيي مواتها وتستخرج دفائنها وتوفّر اسباب خيراتها وذلك بان تنفي ابناءها ضغائنهم وتميت احقادهم وتؤنس ارواحهم كما قال جلالة سلطاننا الجديد في خطابه :

من الواجب على الجميع ان يضعوا جانبًا الاختلافات والمنازعات الجنسية الماضية كما يجدر بابناء وطن واحد . . . فتزداد قوّاتنا العسكرية برًا وبحرًا وتنتظم شؤون الدولية والمالية ويعمّ التعليم وتروج التجارة والصناعة والزراعة بنسبة الترقية الحاضرة العصرية

فكلّ هذه الاماني الطيبة ليس احد في كل اطراف الدولة الّا ويتوق اليها ويتمنّاها من صميم الفؤاد الّا أنها لا ترسخ في الاذهان وتتأصّل في سويداء القلوب ما لم يجرِ بموجبها ارباب الامر ويبرهنون عملًا عن نيّاتهم الصادقة فيشاطرون جميع العناصر العثمانية وجميع الاديان على سواء في تنظيم الامور وتمكين السلطة الدستورية . ولبلوغ هذه الغاية لا بُدَّ من نشر الكتابات والقاء الخطب العمومية وتفنيد المزاعم

الباطلة وتهذيب الشبيبة على تلك المبادئ في المدارس والمكاتب ربما تتبجّن في العقول ويعرف الجميع معرفة تامة ان الوطن لا ينحصر في صوالح بعض الاحزاب او فائدة بعض الخاصة بل يشمل الجميع دون استثناء. فانهُ كجسم حيّ ذي اعضاء شتى واقسام مختلفة لا يُصاب بها الواحد بأذى دون ان يتأذى منهُ الآخرون كما انهُ لا ينالهُ خيرٌ الّا يعمّ الجسد كلهُ. ولا بأس ان يكون في ذلك الجسم الصغير والكبير والرئيس والمرؤوس كما انّ في الجسم البشري الرأس المفكر والقلب المدبّر واليد العاملة والرجل السائرة لكنّ الكل مرتبطون ارتباطاً تامًا ويرمون الى غرض واحد وهو خير الجمهور والصلاح العموميّ. حقق الله تلك الآمال وازال كل نفور وبلبال فانهُ السميع المجيب

لمحة

في المعالجة بالوسائط الطبيعية

او الفيسكوتيرابيا

للدكتور توفيق سلهب احد المتخرجين في مكتبنا الطبي

ليست هذه اول مرّة يذكر المشرق النور والطريقة العلاجية به فانّ الدكتور فيلب بركات في السنة الاولى (ص ٣٨٥) كتب في ذلك فصلاً مستجاداً لخّص فيه نتيجة الابحاث العلمية في ذلك. فهذه المقالة الجديدة تزيد تلك الاقوال وتزيد عليها ما استجدّ من الاكتشافات في هذه السنين الاخيرة ل. ش

المعالجة بنور الشمس

ان من يمعن النظر في العلوم الطبيّة في السنين الاخيرة ويجيل الطرف في اهمّ فروعها وانفعها للانسان اعني به فن العلاج وكيفية استعماله يرى بسهولة انهُ من سنة الى اخرى يزداد تنقيب الباحثين توافقاً وتتجه افكارهم واختباراتهم اتجاهاً واحداً نحو الطبيعيات والكيماويات طمعاً بان يجدوا فيها ما يكون انجع وأفيد من العلاجات التي كانت مستعملة حتى يومنا هذا بدون جدوى في الامراض العضالة كالسرطان

والامراض الجلديَّة وغيرها ولا عجب اذا رأيناهم زادوا بحثاً واجتهاداً وانصرفوا كل الانصراف نحو هــذه الخطَّة فان نجاحاً باهراً كلَّل مساعيهم وكافأ اتعابهم واعاضهم اضعاف ما لاقوهُ من التعب والخطر اثناء تجاريبهم واختباراتهم ممَّا ساعدهم على متابعة السير في هذا المسلك الحديث الاكتشافات الهامَّة التي توصَّل اليها بعضهم كرنتجن والسيّد كوري مع قرينتهِ وغيرهم والتي اوقفتهم على وسائط عجيبة في مفعولها وقوتهــا غزيرة في فوائدها ومنافعها

وليتَّضح جليًّا ما قلناهُ يجدر بنا ان نرجع بالفكر الى مــا وراء العشرين سنة الفائتة فنجد انهُ وان كانت الكهربائيَّة وقتئذٍ معروفة ومستعملة الَّا انَّ طرق الانتفاع منها لا تذكر وكانت نتائجها في الطبّ مقتصرة على بعض حوادث محدودة وقلَّما كانت تحصل الفائدة المرغوبة

امَّا اليوم فقد غدت من بعد اكتشافات اشعَّة رنتجن ومجاري الكهربائية المتواترة (courants de haute fréquence) تأتي بفوائد تقرب ان تكون عجائب سنوردها باختصار لزيادة النفع ويقف كل قارئ كريم على ما تتحفنا بهِ الطبيعة من وقت الى آخر من مخبآتها العجيبة . ولا نبالغ اذا قلنا ان مكاتب الاطباء الاختصاصيين اصبحت كالمعامل لكثرة ما فيها من الآلات والعُدد التي مع تنوّع اشكالها يسهــل استعمالها لمتقنها وفائدتها مضمونة اكيدة خصوصاً في الامراض العصبيــة والجلديَّة وفي كثير من الامراض الجراحيَّة حتى كادت ان تُدعى عجيبة لانهُ لم يكن يخطر على بال بشر ان مرضاً كمرض السرطان مثلاً الذي يعدّه الاطبــاء والعلماء ويذكرهُ الاقدمون والمحدثون كضربة لاشفاء منها ويلقبونهُ بالعضال الغير قابل الشفــاء يعالج بطريقة الكهربائية فيشفى (هذا اذا عولج في بداءتهِ)

ولا يظن القراء ان الهوس اخذ بي مأخذهُ فأنساني ما اقول . كلَّا بل انني اكرّر ما ذكرهُ مؤخَّراً الدكتور بورديه في جورنال البراتيسيان حيث قال: « ان السرطان البشريّ الخاطي ايَّة كانت هيأتهُ اصبح في ايامنا هذه من الامراض التي يُحتَمى منها ويُمكن اتقاؤها والشفاء منها وكما انَّ الجدريّ بعد ان كان يُعَدُّ كمرض عضــال صار يمكن ملافاته وكذلك السرطان البشريّ السطحي فانهُ مرض لا ريب في شفائهِ ».

وليس فقط مرض السرطــان بل كثير من الامراض الجلديَّة وخصوصاً الآكلة

(lupus) فانها نالت بفضل هذه الاكتشافات الحديثة حظًّا كبيرًا وغدت من الامراض السهلة الشفاء بعد ان كانت قتّالة مرعبة ومخيفة

وما نقولهُ عن جزيل فوائد اشعَّة رنتجن ومجاري الكهربائية المتواترة يمكننا ان نكرره عن الراديوم هذا الاختراع الحديث الذي ذكرت خبر اكتشافهِ جرائدُ المعمور كلها وخصوصًا المجلات العلميَّة ومن جملة نتائجهِ الغريبة التي تاتي على ذكرها بفخر معجبين بمكتشفها العظيم ان الراديوم يشفي السرطان سطحيًا كان او غائرًا في اللسان بدون اقل ألم ومن غير ان يبقى لهُ ادنى اثر فلا عجب اذا استغرب البعض ما نقولهُ وقد بانت الادوية على اختلاف انواعها ومنذ وجودها حتى اليوم قاصرة عن شفاء هذا المرض المخيف

ولم تكن الامراض الوبائيَّة باقلّ حظًّا من السرطان وغيرهِ بل كان لها نصيب اوفر من اكتشافات الدكتور روبن الشهير بفنّ الملاجات التي سمَّاها الاختبارات المدنيَّة التي مفعولها اكيد لا ريب بهِ فانها تؤثر بسبب وجودها في السوائل الجسميَّة على كريات الدم البيضاء (Leucocyte) تأثيرًا حسنًا يزيدها قوةً ونشاطًا. ولما كانت هذه الكريات كما هو معلوم ومقرَّر في الجسم كالحارس الامين والحافظ ضد هجمات العدو الخارجي اعني بهِ الجراثيم المرَضية فصار من السهل على كل انسان تقدير مفعولها المزدوج في قتل تلك المكروبات وزيادة الجسم قوةً على قوة بواسطة هذه الموادّ وأصبح من الهين الضروري على كل طبيب استخدامها في بداءة كل وباء يظهر لايقاف سريانهِ بنجاح اكيد . . . .

واضرب عن ذكر بقيَّة الوسائط التي زادت خزانة الطبيب سلاحًا جديدًا وقوة عظيمة اعني بها الرياضة البدنية والدلك والمعالجة بالماء والهواء. وما اكسبتنا من النتائج الحسنة خصوصًا في الامراض المزمنة ولا اشك بان عددًا كثيرًا ممن يقفون على بحثي هذا يثبتون قولي بالبرهان والنتيجة التي حصلوا عليها بذواتهم اذ ان هذه الطرق الاخيرة اصبحت اشهر من نار على علم ولم تحرم منها زهرةُ مدننا بيروت اذ انهُ يوجد فيها منذ ١٢ سنة او اكثر اشخاص ماهرون متخصصون لهذا النوع من العلاج اتوتا بفوائد هذه الطريقة الحديثة

والآن قد اطلنا الشرح توصلًا لغايتنا فلنرجع الى ما نحن بصددهِ الى العلاج بنور

الشمس فهذا هو احدث الطرق واهمها فائدة فنقول: ان نور الشمس هو اقوى المؤثرات الطبيعية ويتركب من اشعة مختلفة تختلف بنتيجتها بحسب نوعها وتكون قوتها متفاوتة حسب شكلها كالاشعة المولدة الحرارة والاشعة المولدة النور والاشعة الكيماوية واخيرًا الاشعة المزدوجة (radioactives) . ويوجد اشعة لها مفعول اشعة رنتجن واشعة الراديوم وهي اشعة لابين السوداء (lumière noire de Lebin) . واما تأكيدات هذه الاشعة على الجسم وغيره فهي عديدة لا تحصى ومتنوعة بتنوعها ومختلفة قوتها باختلاف اللون فالاشعة الحمراء مثلًا تكون اضعف فعلًا من الزرقاء والبنفسجية وهذه اضعف من غير المنظورة

خاصية النور

للنور الشمسي تأكيد عظيم على النبات اذ بدونه لا تحيا وبدون الاشعة الكيماوية لا تتم الوظيفة الكلوروفيلية التي غايتها حفظ الكربون في النبات لحياته . وما نقوله عن تأكيد النور على النبات وضرورته له نقوله عن الجسم البشري بأولى حجة لأن ضرورة النور عظيمة لحفظ المادة الحديدية في الدم ولمساعدة الكريات الحمراء على التجدد . وهنا نعتذر اذا اسهبنا الكلام واكثرنا الشرح والادلة . فمن منا ينكر على النور هذه الخاصة اعني تاثيره على الدم وكل يعلم ويرى بذاته حالة الذين يكون قضي عليهم بالانحجاب عن النور سنين طوالًا كالمسجونين مثلًا والذين يشتغلون في المناجم وخلافهم ممن لم ينتبه الى لون بشرتهم وضعفهم وهل بعد ذلك ينكر بانه متأتٍ من عدم النور

ثانيًا للنور الشمسي مفعول ثانٍ اهم من الاول ألا وهو المطهر والعدو الالد لاي نوع كان من الجراثيم الوبائية ومما يؤكد لنا صحة المزية ما نراه من مياه النيل في مصر التي لو لم يكن يطهرها نور الشمس من الملايين ومئات الملايين من الجراثيم والميكروبات التي تحملها على طول مجرى النهر لكانت تفتك بالملايين من السكان الذين يستقون منها . ولقد رأيت مرأى العين ما فيها من الاقذار وكدت اموت عطشًا في بادئ الامر خوفًا من ان استقي من تلك المياه رأسًا واشرب كما يفعل القسم الاكبر من سكان القطر وكأني بهم يكرعون من ماء نبع العسل او نبع صنين . وما اقوله عن ماء النيل يقال عن ماء نهر السين في باريس الخ . . . هذا بالنظر الى النور من الوجه الصحي

واما لو نظرنا اليه كعلاج فيكفي لاظهار منافعه ان نذكر الاختبارات الحديثة التي اجراها موخّرًا هالوبو امام الندوة العلميّة في باريس بالاشتراك مع الدكتور روليه فانها على درجة عظيمة من الاهميّة والغرابة وجديرة بكل اعتبار ولقد وضع الدكتوران المذكوران كأساس لقولهما هذا المبدأ وهو انّ منافع العلاج بالنور تكون احسن واوفى على قدر الارتفاع فوق سطح البحر لأن هواء السهول الواطية لا يخلو ابدًا من الغبار والابخرة المائية التي تمتصّ القسم الكبير من الاشعّة الغير المنظورة التي هي اقوى مفعولاً . وبالعكس لو ارتفع الانسان الى قمم الجبال العالية حيث تبقى الاشعّة الكيماويّة على قوتها ومفعولها فانّ تأثيرها ظاهر نشاهده يوميًا في سكّان تلك المحال المرتفعة خصوصًا بتغيير لون بشرتهم التي كثيرًا ما تصبح تميل الى السمرة القويّة بقدر علو المكان . وكذلك الذين يقطنون المدن وينتقلون بسرعة الى الجبال العالية فيتعرضون لنور الشمس فيحدث لهم طفح جلدي بدرجات متفاوتة من الشدة ينتهي بسقوط البشرة الخارجيّة من الجلد وهذا برهان حسي ينظره كلّ من لم يختبرهُ بنفسهِ

فينتج اذًا ان المنفعة من مفعول اشعّة نور الشمس تكون قوتها بقدر علو المكان ولا يظنّ القارئ بانهُ يُعتذر الانتفاع منهُ في السهول وعلى الشطوط البحريّة بل اننا نقول ان اقوى تأثيراته يكون في الجبال العالية وقد شوهد ان شدّة النور في الجهات الجنوبيّة تنوبُ عن قوتهِ في المحال المرتفعة وينال المرء المنفعة المرغوبة . واما طريقة العلاج فيهِ فتكون بواسطة الحمّام الشمسي والغاية من هذا الحمّام عرض السوائل الجسميّة على قوة النور الكيماوية فتجدد كريات الدم وتسرع الدورة الدمويّة الخارجيّة وتفرز الاعضاء الداخليّة كلما تحويه من المواد المضرّة . شروطهُ سهلة جدًا . اذ يكفي الانسان تغطية راسه ووجهه وعرض جسمه للنور عاريًا مدة مختلفة من الخمس دقائق حتى العشرين تدريجيًا الى ان يعتاد الجسم وحينئذٍ يمكن تمديد الوقت لساعات بدون اقلّ ضرر فتكون النتيجة ان الجسم يسمر وتكون هذه الصبغة الخارجيّة دليل زيادة كريات الدم الحمراء ومن نتائجهِ على المرضى انهُ كثيرًا ما يحدث عجائب عند المصابين بفقر الدم والمسلولين . ولنا كلمة بخصوص علاج السل بواسطة نُرجئها الى وقت اخر ولا تقتصر منفعتهُ على هذه الامراض فقط بل تكون اعظم واجلى في كثير من الامراض الجلدية الموضعيّة وفي القروح وسواها ومما يجمل هذه النتائج معقولة كون الاشعة التي تاتي بهذا الشفاء هي قريبة

للثانية من اشعة رنتجن ومن الراديوم ولهذا نقول باختصار ان طريقتهما ونتيجتهما واحدة

ومما يستدل من هذه الامور العجيبة ان الانسان في القرون الماضية بسوء علاجه كان يفرغ جهده ليعاكس الطبيعة ويسلك الطريق المخالفة لنواميسها ولهذا بقي حتى اليوم محروماً من منافعها كالولد العقوق الذي يرفض عناية والديه قبل ان يبلغ اشده

واعلم ان الطبيعة ام حنون اوجدت لنا كلما هو مفيد ونافع لكننا نرفض الاعتراف بها ونخالف نصائحها ولذلك ابتلينا بامراض افنت الملايين اذ لم نرض بها طبيباً. فحب الذات والانانية اضعفا قوانا وكادا يفضيان بنا الى الهلاك وهي تنظر الينا والدموع ملء العيون باسطة ذراعيها وفيها من الفوائد والمنافع الكثيرة ما لا يعد ولا يحصى. علمت بان من ضروريات المعيشة التمرين والنور فلم نبالِ بهما ولم نعمل بما سنته لنا وقد قام التمدن فعاكسها بكل قواه فاعتاد الانسان الكسل وقلة الحركة بدلاً من التمرين وعوض الهواء النقي بالانزواء والاختلاء في اماكن ضيقة ومظلمة

فعلى هذه الايضاحات صار يكفي الطب شرفاً وفخراً بانه اشعر بهذه الضروريات وعرفها وجاهر بوجوب استعمالها وفاز بنوال نتائج باهرة واشفى امراضاً كانت حتى يومنا هذا قتالة مريعة

العمل

نظر في تعريفه وتجزئته واستقلاله والتعاون عليه

للطيب الذكر خليل غانم مندوب سورية سنة ١٨٧٧

توطئة

قصدت حضرة ارملة المرحوم خليل غانم مدينة بيروت بعد وفاة زوجها فاستوطنتها ثلاث سنوات وافادتنا اثناء كثيرة عن قرينها فقيد الاوطان واطلعتنا على بعض كتاباته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي نشر بعضها في اوربة ومصر فاخترنا منها فصلاً بهياً كتبه في العمل وشروطه وفوائده والتضافر على إنجاحه وتعميم منافعه فان فيه من حسن النظر وإصابة الرأي ما يحقق قول الكاتبين عنه انه كان من كبار السياسيين والاقتصاديين يجدر بوطنه ان يفتخر بمثاله. وهذه خلاصة ترجمته

ولد خليل غانم في بيروت سنة ١٨٤٦ من اسرة وجيهة عُرف أكثر افرادها بالفضل وتمدُّد الخدم لوطنهم وطائفتهم فتخرَّج في شبيبتهِ في مدرسة الاباء اللعازريين في عينطورة وبعد ان اتقن فيها الافرنسية حتى امكنهُ بعد ذلك ان يكتب فيها ويخطب وينثر وينظم انكبَّ على درس اللغات العربية والتركية والانكليزيَّة واتقنها كلها. وما بلغ السادسة والعشرين من عمرهِ حتى قُلِّد عضويَّة مجلس تجارة بيروت ثم عين ترجمانًا لمتصرفيتها ولولاية سورية وتقلَّب في الوظائف وهو يبرهن فيها كلها عن مقدرة وسموّ ادراك واستقامة حتى بلغ الى منصب الترجمة في الاستانة العلية في الوزارة الخارجية ثم في الصدارة العظمى. وفي اثنا ذلك أُعلن بالدستور في اول سلطنة عبد الحميد الثاني فاسرعت سوريا الى تعيين خليل غانم كاحد مبعوثيها في مجلس النوَّاب وكان اول من عهد اليهِ النظر في قوانين الدولة الدستورية لاعداد النظامات التي تقترح على مجلس المبعوثين. وكل يُعرف كيف أُبطل ذلك الدستور باستبداد السلطان عبد الحميد واضطرَّ خليل غانم الى ان يفارق بلادهُ لكنَّهُ وقف حياته على خدمة وطنهِ في الغربة وقضى بقية عمره الى وفاتهِ سنة ١٩٠٣ في الانشاء والكتابة حتى عُدَّ من ارباب القلم ولو جُمعت تآليفهُ لانافت عن بضعة مجلَّدات. ومن مناقبهِ الطيبة انهُ كان ابيَّ الطبع عفيف النفس اراد السلطان السابق ان يبتاع سكوتهُ عن المسألة الشرقية بالدرهم فردَّ تلك الهبات مفضلًا عليها صدق النيَّة واخلاص الخدمة لوطنهِ. ومما يسرُّنا ذكرهُ من صفاتهِ الحميدة استمساكهُ بدين اجدادهِ واقامتهُ لواجباتهِ الدينية بكل تدقيق كما اكَّدتهُ لنا السيدة مباري قرينتهُ وكما يدلّ عليهِ مجموع قصائدهِ في السيد المسيح. ومما تمناهُ اتخليد ذكرهِ بيننا أن يُنصَب تمثالهُ في احدى ساحات بيروت كما طلب ذلك جناب الاريحيّ الامير امين افندي ارسلان وأعدَّ التمثال على نفقتهِ فتكون صورتهُ بيننا. كآية الشهامة والاقدام والتفاني في سبيل الوطن

ل . ش

الفصل الأوَّل

في ما هو العمل

العمل قوام النموّ وعماده المتين وركنه الكين وهو اما معنويّ او حسّي فالاول ما يعمل الكاتب بهِ والشاعر والمؤلف والمخترع ونحوهم. والثاني ما يعمل الحائك والخياط والصباغ والنقاش وامثالهم والعقل اساس الاعمال المعنوية وهو يتخلل الحسيَّة لما بين الفكر والعمل من الاشتراك. وكيف كان العمل فهو حقٌّ عامله اي ملكه المطلق يتصرف فيهِ كيف يشاء فلا يغتصب ولا يستملك منهُ الَّا ظلمًا واعتداء فان الاستملاك منكر سواء وقع على العمل او على عامله الَّا ان يكون العامل قد اجر نفسه من غيره بقِبَل معيَّن فصار عمله ملك غيره برضاه واختياره فلا اغتصاب في الامر ولا نكر فيهِ. وقد يبيِّن لسنَّة الله وحكمتهِ في عباده اذ انهُ رفع منهم ووضع ووصل بينهم بالاحتياج المتبادل فالفقير يحتاج الى الغني كما يفتقر الغني الى الفقير فسبحان الغنيّ القدير المتنزه

عن الحاجة وانما جعل العمل دواء لداء الإعواز فكان جالبًا للمسرَّة دافعًا للمضرَّة موجبًا للراحة والسعادة

وللاعمال فيما يقول « غارنيه » ثلاثة مجارٍ وهي الاختراع والادارة والاجراء. فزيد يخترع ويدفع ما اخترع الى عمرو ليهيّئ اسباب إجرائه ثم يدفعهُ الى العملة يجرونهُ بحركة الايدي او الارجل او بحركتهما جميعاً . واعلم ان للحكام الكلمة النافذة والسلطة الغالبة في دوائر الاعمال فاذا لحظوها بعين العناية انفتحت ابوابها وتوفَّرت اسبابها واذا مدُّوا ايديهم لتوقيف حركتها بتحديد مجاريها فسدت امورها وتلاشت احوالها. اما اهتمامهم بالاعمال فيكون على وجهين الاوَّل ان يؤيد الحاكم الامن والحرية لاربابها. والثاني ان يقضي بينهم بالعدل اذا تخالفوا فان لم يفعل ذلك فان العاملين لا يأمنون على انفسهم وعلى اموالهم وثمرات سعيهم واجتهادهم فتنقبض ايديهم عن الاعمال الّا ما يدفع الخلَّة ويحصل به القوت الضروري كما نرى ذلك في البلاد الخالية من العدل والامن. قال احد الفضلاء: ان الحكومة المختلَّة الاحوال المنحرفة عن العدل تكون سببًا في ضياع ملايين لا تحصى من المال فمهما تبذل الرعية من مالها في سبيل الحصول على ادارة منظمة فذلك قليل في جنب ما ينشأ عن تلك الحكومة من المنافع والفوائد

واقول ان الادارة الحسنة لا تقتضي كلفة جسيمة او نفقة واسعة وغيرها تقتضي ذلك فان منافعها الناشئة عن التحرّي والاحتساب لا تعدّ ولا تحدّ. ثم ان العمل القائم بالاجور يتجها الانسان من عمله وفي كل عمل فائدة ان لم تُصِبك فانها تصيب جارك او عميلك او شخصاً آخر فان لم تحصل الفائدة تلاشى العمل. والاجرة نوعان: الاول ما يسمَّى بالالتزام او المقاطعة وهو ان تعهد الى من تشاء عملًا باجرة معلومة يقوم فيه بنفسه مأجورًا عليه لا على ساعات الاشتغال فيكبّ على العمل في الليل والنهار لا يتفرَّغ منهُ ساعة بل لو استطاع لوقَّف الشمس عن حركتها كما فعل ابن نون الّا انَّ ذلك الاجتهاد ربَّما ضرَّ العمل والعامل فلا يكون العمل مستكملًا لأسباب الاتقان أمَّا العامل فيلوهُ ضعف البدن وسقمه . وقد رأيت كثيرًا من اهل بلادي يعاملون البنَّائين بالمقاطعة فيعرضون بذلك اموالهم للضياع وارواحهم للتلف فان البنائين اذا اجروا العمل التزامًا جعلوا همهم في سرعة انجازه وتقليل اسباب متانته لتقلَّ بذلك

النفقات فيحصل لهم الربح من زيادة الاجرة على المصروف فلينتبه لذلك اصحاب الابنية ولا يطمعوا في فرق الكلفة اليسير مخافة الوقوع في الخسارة الجسيمة فقد يخسر الانسان اذا افرط في طلب الربح. اما ارباب الفلاحة فالجدير بهم ان لا يوجروا الفعلة للقطاف التزاماً مخافة ان يقطعوا الشجر للتوصل الى الثمر. واما الحصاد فلا بأس في استعمال الفعلة فيه بالمقاطعة

واما النوع الثاني من الاجرة فهو المياومة اي ما يعطى للفاعل من العوض اليومي وهو احسن النوعين نتيجة فان العامل بالاجرة اليومية لا يتعجل العمل لعدم وجود المطمع ولا يتهامل فيه مخافة ان يطرده الموجر فيكون اشدّ غيرة واحسن صنعاً من الاجير بالالتزام. ومعظم الاجور في فرنسة يومية سواء كانت الاعمال صناعية او زراعية. واما في انكلترة فجلّها التزامية والسبب في ذلك ان اكثر اعمال الانكليز قائمة على حفر الآبار واستخراج المعادن وطرق الحديد وغير ذلك مما لا يقتضي الدقّة والتأني كما يقتضيه نسج القماش وغيره من الصناعات الدقيقة. على ان فاعل الانكليز لا يكاد مع ذلك يخلو من الشغل حتى شبه بآلة يحركها البخار ومن اجل ذلك كانت بلادهم اغنى البلاد وان لم يكن سكانها من اسعد العباد . . .

وافضل الاجور الاجرة اليومية مضافاً اليها سهم او بعض سهم من الكسب كما يفعل بعض تجار بلادنا مع كتبتهم وبعض اصحاب المعامل في الديار الاجنبية مع الفعلة فيكون الماهن اي الاجير عاملاً وشريكاً معاً فيبذل المجهود في اتقان العمل والحرص على المصلحة والسعي في تحصيل المنفعة رجاء ان يحصل له النفع في الحال والاستقبال

اما العملة عموماً فيمتاز بعضهم عن بعض بالصفات والعادات والخلائق فقد عُرف فعلة انكلترة بفرط الهمة وعظم الاقدام. وفعلة المانيا بالرزانة والصدق. والفعلة السويسريون بالامانة والاستقامة. والفرنسويون بدقة الصنعة وحسن الاختراع وزخرفة العمل. والايطاليون باللهو والاهمال. والصينيون بالصبر واتقان المصنوعات المحتاجة الى الزمن الطويل. واهل بلادنا عموماً بالتجلّد واحتمال المشاقّ والرضا بالقليل والسكون الى الراحة في كثير من الاوقات والمحافظة على تقاليد القدماء. واساليب السلف حتى ان صناعتنا وزراعتنا لا تزالان على مثل ما كانتا في زمن نوح عليه السلام. ولا انكر ان القناعة تكون الى حدّ ما فضيلة وانها كما يقال كنز لا يفنى الّا اني اراها تتحد عند

نقطة الافراط بالكسل والاهمال ولذلك اسأل الله ان يوفق اهل اوطاني الى الاقتداء بالافرنج في جدهم واجتهادهم وان لا يزدروا بما يرون من آثار فضلهم ولا يطمئنوا على منافستهم في فضل الجدود ولا يعيّروهم قرب العهد بالتمدن فقد قيل :

ان الفتى من يقول هاءنذا ليس الفتى من يقول كان ابي

ولا ارى الافرنج ينكرون فضل جدودنا الّا ان اعترافهم بهذا الفضل لا ينفي تقدمهم علينا في مسالك المدنية ولذلك أخاف ان يقولوا لنا : نعم الجدود ولكن . . .

الفصل الثاني

في تجزئة الاعمال

اعلم ان الاعمال وافرة لا تحصى عددًا ولا تحصر نوعًا وانها تزيد على حسب زيادة الحاجات وتقدّم الناس في الحضارة واتساع الثروة وكثرة دواعي الترف والنعيم . ثم ان المصنوع الواحد يحتاج الى عدة من الصانعين لتعدّد الاجزاء والادوات وعجز الانسان الواحد عن القيام بها جميعًا بحيث لو اضطرّ الى مداركة جميع حاجاته بنفسه اي غير مستعين بابناء جنسه لَبَقي السعي الانساني مقصورًا على ضروريات المعاش الحيواني بل كنا معاشر الناس اسوأ حالًا واضلّ سبيلًا من الحيوان فان حرمانه من مزية العقل وحرّية الفكر قد ابعد عنه مسئولية التبصّر الناشئة عن تلك الحرّية نفسها وكفاه مؤونة التفكّر في الغد فاندفع عنهُ ألم اليأس او ضعف الامل فلم يحتج الى السعي المستمرّ ولم يفتقر الى تجزئة العمل

اما فوائد تجزئة الاعمال فهي اكثر من ان تحصر وقد اثبتها المقتصدون بادلة لا تنكر وكيف ينكر تلك المنافع من يعلم ان عشرة فعلة في احد معامل الابر يصنعون ثماني واربعين الف ابرة فيكون مقدار ما صنع كل منهم اربعة آلاف وثمانمائة في حال كونه لو انفرد عن رفاقه مع وجود الآلات وتيسّر الادوات لما استطاع ان يصنع عشرين ابرة . او من يرى ان ثلاثين فاعلًا في معمل ورق القمار المعروف عند بعض الناس بالشدّة وعند آخرين بورق اللعب يصنعون في نهارهم خمسة عشر الفًا وخمسمائة شدة اي رزمة من ذلك الورق مع انهُ لو كُلّف بالعمل واحد منهم دون الآخرين لقصرت همته عن صنع شدّة واحدة وما ذلك الّا من بركات التعاون وفوائد المؤازرة

ولا تنكر مع ذلك مزيَّة المعرفة الناشئة عن استمرار الممارسة وادمان المباشرة الموجبة للمهارة في العمل والسرعة في اتمامهِ كما يُرى ذلك في صغار المعامل كالافران مثلًا حيث يقوم الخبّاز على صنعته بمهارة ورشاقة تدهش الخاطر فلا يكاد الناظر يرى قطعة العجين على يده حتى يراها على الكارة رقاقةً وعلى البلاطة رغيفًا فيذكر قول الشاعر:

لم انسَ كارة خبّازٍ مررتُ بهِ يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصرِ
ما بين رؤيتها في كفهِ كرةً وبين رؤيتها قوراء كالقمرِ
الّا بمقدار ما تنداح دائرةٌ من وجنة الماء بعد الرمي بالحجرِ

ولقد ذهل اهل بلادي عن منافع التعاون ورغبوا في الانفراد طمعًا يوجب الخسران او قناعةً يترتب عليها الضعف والاضمحلال فترى الحائك منّا قائمًا على النول ينسج منفردًا وقلَّ ان يكون عنده نولان بل لو استطاع الاستغناء عن الاجير لفعل. كما رأيت ذلك في احد انسبائي وهو رجل يقال لهُ ابو نوفل عرفتهُ في حداثة سنّي شيخًا معمرًا ينسج الحرير في حانوتٍ حقيرٍ على نول صغير ولا صانع لهُ ولا اجير وكان مع ذلك متوليًا امر بستان لهُ في حيّ الصيفي بتلك المدينة يربّي فيهِ الدود ويستخرج منهُ الابريسم لينسج بهِ الحرير كل ذلك على قدر الحاجة والكفاف حتى قحل بستانهُ في احدى السنين فقصر عن الكفاف واحتاج ابو نوفل الى شراء الابريسم لنسج الحرير الّا انهُ لم يتململ من ذلك ولم يشكُ الفاقة بل كان غنيًّا بقناعتهِ ينشد بلسان حالهِ قول القائل:

ولبس عباءةٍ وتقرَّ عيني احبُّ اليَّ من لبس الشفوفِ

ولكن ما بالنا نستحسن الفقر وضيق الحال وموضوع البحث والآمال انما هو توفير الثروة والمال بتجزئة الاعمال. لا جرم انني انتدب قومي لاقتفاء اثر ابي نوفل فان القناعة وان كانت كنزًا لا يفنى الّا ان العمل افضل منها بالنظر الى العمران وسعادة الانسان فعلينا والحالة هذه ان نصرف جلَّ الهمة الى التعاون على الاعمال بالقيام على تجزئتها ساعين بترقيتها وان لم يتيسَّر لنا بداءة بدء ايجاد المعامل العظيمة والآلات الكبيرة فلا اقلَّ من السعي في اصلاح ما عندنا من ذلك على انهُ لا يصعب علينا جلب انوال جديدة كالتي ينسج الافرنج عليها اقمشتهم العريضة الّا ان يكون قُضي علينا نحن الشرقيين ان لا نحوك اقمشتنا الّا بالانوال التي نُسجت عليها ثياب جدودنا وان لا نحرث

الارض الّا بالآلة التي حرث بها نوح عليهِ السلام. وايمن الله لو نُشر احد من سلفنا الاوّلين لمّا رأى من فرق بين حالنا الحاضرة وحال بلادنا ايّام كان صبيًّا ولقال حين يرى المنوال: هذا الذي نسجتُ ثوبي عليهِ. وحين ينظر المحراث: هذا الذي حرثت بهِ. وحين يرى الابريق: هذا الذي شربتُ بهِ والدتي لم تعدل طينته ولم تتغيَّر قوالبه. وبالجملة ان داء الاهمال والاختلال تمكَّن في حالنا ولا دواء لهُ الّا ترك الاغراض الشخصيَّة ونبذ المقاصد الدنية والتعاون على الاعمال والمؤازرة على ما يعود بالنفع ويصلح الاحوال

ثم ان قاعدة التجزئة يتبعها الزرَّاع بحكم البداهة اذ يعتبرون ان الارض التي تقتصر على زراعة صنف واحد من الزرع تكون اوفر غلّة واوفى ريعًا من التي تُزرع فيها الزروع المختلفة المتنوعة وان بعض الارض صالح لزروع الحبوب وبعضها لزرع الاشجار وهلمَّ جرًّا. مثال ذلك ارض داريّا بالقرب من دمشق فانها تنبت الكرم المشهور عنبه بالزيني وهو اجود العنب في الاقطار الشامية ولذلك فلا يغرس اهلها غيره في حال كون الارض المتاخمة لها لا تصلح لزراعة الكرم فان غُرس فيها لم يكن عنبه مماثلًا للزيني طعمًا ولا محاكيًا لهُ شكلًا. وان ارض حوران تنبت الحنطة والشعير الجيدين فيقبل اهلها على زرعها. وان اهل لبنان يهتمُّون بغرس التوت والزيتون واهل مصر بزرع القطن والارز والبوشناق بغرس الخوخ وهلمَّ جرًّا. فلا اعتراض والحالة هذه على اتباع قاعدة التجزئة في الزروعات

واما في الصناعة فقد كثر المعترضون عليها يزعمون ان تجزئة الاعمال تجعل الانسان آلة صمّاء اذ ينشأ عن تكرار العمل الواحد خمود الفكر وجمود الخاطر وان اتباع هذه القاعدة في بلاد الافرنج قد جعل اصحاب المعامل يستخدمون النساء والاولاد فكان ذلك موجبًا للاضرار بالهيئة العائلية اذ تنقطع النساء بذلك عن تدبير المنزل والاولاد عن طلب العلم في المدارس. فالجواب على ذلك ان الفعلة متندبون للاشغال اليدويَّة فهم الى تحصيل المعاش والتفنن في اساليبه احوجُ منهم الى التضلُّع من العلوم بل الصناعة نوع من العلم توجب تهذيب الخواطر وتثقيف العقول. ولا ينقض ذلك توهم ان تكرار العمل الواحد يحصر الذهن فيهِ فلا يتعدَّاه فان من يصرف عمره في صنع الابرة قطعًا وتثقيبًا وتثنيًا لا يكون اوفر ذكاء ممن لا يعاني الّا الثقب واني لأذهب في هذا الامر الى ما ذهب اليهِ «بانبي» حيث قال: ان قيام الفاعل على العمل الواحد

يكرّره في جميع ايامه يجعله كامل المهارة في صناعتــه بل ربما دعاهُ ذلك الى اختراع وسيلة نافعة لها على انهُ لم يتعين على كل من الناس ان يكون استاذاً معلماً او حكيماً مهذباً او عالماً مخترعاً والّا حصل التساوي المطلق وامتناع القيام على الاعمال لاختلاف درجاتها المستلزم اختلاف درجات الرجال

اما استخدام النساء والاولاد في المعامل الصناعيّة فلا بدّ ان يلاحظ فيهِ اوّلاً ما يحصل للعائلة من الفائدة بكسب المرأة والولد وما تحتاج اليــهِ الحالة الفقريّة من التعاون على اصابة الرزق. واما انقطاع الاولاد عن المدارس فهو اعتراض جوهري وامر ذو بال الّا ان عدم وجود المدارس الابتدائية في كثير من قرى البلاد غنيــة كانت او فقيرة يقوم في هذا الامر مقام العذر. وحسبك ان وزير معارف فرنسا قال في احد خطبه انه لا يمكن الاكراه على التعلُّم الّا بعد انشاء المدارس الكافية في جميع القرى (١ على انهُ لا يسعنا ان ننكر ان كثرة استخدام النساء في المعامل قد اضرَّ بالهيئة العائليّة في بعض البلاد من حيث قلّة النسل اذ طمعت المرأة في الربح فاسقطت حملهــا كيلا يعوقها عن مداومة العمل ولا يمنعهــا من تحصيل الاجرة الّا ان ذلك قليل الوقوع لا يعدل الفائدة التي تنشأ عن اشتغال النساء والاولاد سواء كانت من حيثيــة اصابة الرزق او من وجوه غيرها كالامتناع من الكسل والبطالة. ولا يتعذر تخفيف هذا الضرر او دفعهُ قبل حصوله بمنع الجنسين من الاختلاط الموجب الفساد وبان يعيّن اصحاب المعامــل مدرّساً للصغار من خدمته يؤدّبهم ساعة او ساعتين في النهار كما يفعل كثير من ذوي المعامل الكبيرة في اوروبا. اما النساء فمن الواجب ان تكون اعمالهنَّ خفيفة ملائمــة لأمزجتهنَّ وان يرفع عنهن الشاقّ من الاشغال وان كنَّ قادرات على القيام باكثر اعمال الرجال كما تدلّ على ذلك حالهنَّ في بلاد نابلس وجبل لبنان حيث يقمن على فلاحــة الارض ونقل الاثقال في حال كون رجالهنَّ (وذلك في النابلسيين دون اللبنانيين) يتقلبون على بســاط الراحة وفراش الكسل فهم ومثلهم الحورانيّون يبذلون ما يستطيعون من المال للحصول على النساء القويات الابدان بخلاف عادة الاوروبيين اذ تبــذل النساء المال للحصول على الرجال فالسعيد من اولئك مَن كثرت بناته كما ان السعيد من هؤلاء

١) ثمَّ انَّ التعلُّم الاجباري من القوانين المجحفة بحريّة الوالدين اللذين كثيراً ما يكونان في حاجة الى شغل اولادهما (المشرق)

من كثر بذوه أفلا يستغرب ذلك نساء قومي الرافلات في اثواب الراحة او لا تراه النساء الاوروبيات خرافة ذوي اوهام او اضغاث احلام

ثم ان الصناعة تكون في المدن احسن حالاً واتقاناً منها في القرى لكثرة السكان والعمّال ووفرة الاستهلاك واتباع قاعدة التجزئة في الاعمال فان الرجل الواحد قد يكون في القرية نجّاراً وحدّاداً وزجاجاً معاً او حائكاً وقصّاراً وصبّاغاً وخياطاً فيستحيل عليه ان ينبغ في جميع هذه الصناعات بل يتعسّر عليه اتقان واحدة منها لاشتغاله بسائرها. واما في المدن فكلٌّ يسعى في شأنه ويقوم بصناعته بل ربما اقتصر الرجل على فرع من العمل واستعمل غيره في باقي الفروع. وقد بلغت تجزئة الاعمال في بلاد الافرنج غايتها القصوى حتى ان الطاهي الباريسي لا يتقن سوى لون من الطعام فلا يطبخ غيره وان في باريس ولوندرة وويانا وبرلين كثيراً من الاطباء الذين مع معرفتهم بجميع الفنون الطبيّة يقتصرون على فنّ واحد منها كالجراحة او امراض العيون او الامراض الصدريّة او الحمّيات وقس على ذلك سائر ارباب الصناعات فيما ان اطباء القرى يعالجون جميع الامراض على حد سوى مع كون اكثرهم من الجهلاء والدجالين الذين لا يحصل على يدهم الشفاء الّا بالموت والذين يصح فيهم قول الشاعر في ابن شمعون :

طبُّ ابن شمعون على فضلهِ   حكمٌ على هذا الورى يمضي
يمشي وعزرائيل من خلفهِ   مشمِّر الاردان للقبضِ

الفصل الثالث

في استقلال الاعمال

اعلم اولاً ان نجاح الاعمال وتكامل وسائل الاختراع والابداع متوافقان على الحرية والاستقلال كما ان تأخرها وتلاشيها من نتائج الرق والاستعباد وهي قضية مسلَّمة لا حاجة فيها الى الدليل

اما الاستقلال فهو تصرّف المرء في اعماله ونتائجها تصرّفاً مطلقاً في دائرة الشرائع الحقة والقوانين العادلة فانّ الحريّة الحقيقية قائمة بالعدل. وقال الحكيم بالي الانكليزي في تعريفها : الحريّة هي ان يحق للانسان ان يفعل ما شاء بحيث ينتهي بهذا الحق الى حق جاره في مثل ذلك فلا يتعدّاه فذلك عين العدل والاعتدال. وقال غارنيه : الاستقلال

في اصطلاح العلماء . قائم بحرّية العامل في ان يختار ما يروم من الصناعات وان يبيع ما يصنع مَنْ يريد بما يريد من الثمن او البدل وان ينقل سلعتهُ الى حيث شاء متصرفًا في جميع ذلك تصرُّف المالك في ملكهِ وهو الاساس الذي ينبغي ان تبنى عليـهِ قوانين الاعمال فان لم تكن احوال البلاد وساكنها مساعدة على ذلك فلا اقلَّ من ان يتخلل قوانينها روح الحرّية تمهيدًا للطرق المؤدية الى هذه الغاية

واما الاستعباد فهو غلّ الاعمال وقيد الافكار سواء وقع على الصانع ام على مصنوعه فان الحرّية الشخصية منحت الانسان ان يكون عاملًا فاذا أُسر فانما يؤسر من اجل عمله وطمعًا في الانتفاع بهِ بدليـل ان الذين تسوقهم دناءة انفسهم الى الاتجار بالرقيق لا يأسرونهم ولا يشترونهم الَّا اقوياء اصحَّاء الابدان وان العُجز والمقعدين والعميان وارباب العاهات لا خوف عليهم من الاسر ولا هم يُستعبدون . ومن المعلوم الظاهر ان الرقيق لا يصرف همته الى ما يؤسر بهِ من العمل عالمًا منهُ بانهُ صائر بذلك الى احدى غايتين يتمنَّاهما فامَّا ان يطرده سيده فينجو بذلك من الرق واما ان يبيعـهُ فيرجو من الانتقال رحمةً او فرجًا . واماّ الذين يضربون عُبدانهم سوقًا الى الاعمـال وحثًا على الاجتهاد عملًا بقول ابي الطيب

لا تشتري العبد الَّا والعصا معهُ ان العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ

فلا يستفيد من ذلك الَّاسخط الانسانية ونفور اهلها فان الاستعباد يذهب بشهامة الانسان فلا تؤثر فيه الاهانة ولا تحمله على الاجتهاد . وجملة الامر ان العمل مصنوع بيد حرة يكون احسن صنعًا واكمل وضعًا واوفر فائدة واجمل عائدة من العمل المصنوع بيد مستعبدة مضطرة ان عملت مثقال ذرَّة او مثقال ذرات خيرًا لم ترَهُ

فلا جرم ان الحرّية التي مُنحت للانسان فميَّز بها الخير من الشرّ والنفع من الضرّ وان المسئوليَّة التي أُلقيت عليه ناشئةً عن تلك الحرّية قد رفعتاه الى الدرجات السامية التي كان يحسب همتهُ قاصرة عن الوصول اليها وانالتاهُ المقاصد العاليـة التي لم يكن يأمل الحصول عليها ولا غرو في ذلك فان الحرّية والاستقلال يوجدان في المرء الهمَّـة والنشاط والصبر والثبات والحزم والاقدام والغيرة والحميَّة والكرم والشهامة وغير ذلك مما لا يكون في المستعبد الاسير الذي تموت فيه الخصال الحميدة وتحيا الطباع الدنيئة الَّا الذين قادهم الاتفاق الى الرقّ مع كبر نفوسهم عنه فالتمسـوا النجاة منه وقليلًا ما

هم . على ان ما يكون في هؤلاء من محاسن المزايا انما منشأه تصوّر الحريّة والرغبة فيها وحسبنا دليلًا على ذلك ما نراهُ في بلاد الحريّة والقوانين العادلة المبنيّة على المساواة الحقة من ترقي العالم والكاتب والصانع والمخترع الى المقامات التي هم بنوالها حقيقون وما نجد فيها من المؤلفات الجليلة والاختراعات الجديدة والاكتشافات المفيدة والصناعات المفيدة فان جميع ذلك من عمل الاحرار المختارين لا الارقاء المستعبدين بل الفضل لا يواطن الرقّ ولا يساكن الاستعباد فلا نجاح للاعمال الفكريّة ولا صلاح للزراعة والصناعة والتجارة الّا بالاستقلال الذاتي . وحجّتنا على ذلك حالة البلاد الاميركيّة فانها منذ نشطت من عقال العبوديّة اي من مائة وبضعة اعوام في النموّ والتقدم بسرعة لا مزيد عليها فعظم عمرانها وكثر ساكنها فصار عددهم نحو ٤٠ مليونًا (واليوم ٨٠ مليونًا) بعد ان كان في سنة ست وسبعين بعد السبعمائة والف نحو ثلاثة ملايين وهم الان راتعون في رياض الامن متفيئون ظلال الحريّة في بلاد واسعة الارجاء تعدل مساحتها خمس عشرة مرة من مساحة البلاد العثمانية وما سبب ذلك الّا الاستقلال . ولا ينبغي ان يظن بان الجمهوريّة من الشروط اللازمة لحصول التقدم فان النجاح حاصل في كثير من بلاد اوروبا الملكيّة الّا ان له شرطًا لازمًا وحكمًا ملازمًا وهو ازالة الاستعباد وملاشاة الاستبداد بوضع النظامات الحرة والقوانين العادلة مع العمل بها والمحافظة عليها والتوفيق بينها وبين احوال البلاد وطبائع اهلها

فان قيل خصب اميركا اصلي وثروتها طبيعيّة فلا مدخل في ذلك للحريّة والاستقلال . قلنا ان ارض المكسيك ومستعمرات اسبانيا في كوبا اوفر منها خصبًا واحسن طبيعة وهي مع ذلك في تأخر وانحطاط تشبّ بها نار الحروب الاهلية والفتن الداخلية فتخرب عامرها وتفسد صالحها في حال كون البلاد الاميركية راتعة في رياض السلم واردة من حياض الامن . وما احسن ما قالهُ في ذلك حكيم الفرنسيس مونتسكيو المشهور ومعناهُ : ان نموّ الغلة لا يكون على قدر خصب الارض ولكن على حسب استقلال اهلها فربَّ ارض وعرة المنابت كثيرة الحزون جعلها اصحابها جيدة الخصب كثيرة الريع بما لهم من الاستقلال وما نالوهُ من الامن والعدل . وربَّ ارض مخصبة التربة جيدة الموقع جفَّت نضارة خصبها لخلوّها من الامن وتوول الحيف والظلم بها فاصبح اهلها يئنون تحت اثقال الفاقة ويحجلون بقيود العسر فانهُ لا نجح للاسرى المسترقين بل

لا تكاد اعمالهم تفي بحاجاتهم الضروريَّة فاذا عرض لهم عمل نافع يقتضي اليسير من الهمة والقليل من الاقدام اعرضوا عنهُ علماً بانهم لن يستفيدوا منهُ فائدة ولا يعود عليهم بعائدة

واعلم ان الحريَّة الموجبة لاستقلال الاعمال نوعان حريَّة معنوية وحريَّة حسّية والمنفعة فيهما ظاهر فالبلاد التي حوتها تبلغ درجات الكمال في التمدن وحسن الحال والعكس بالعكس. ثم ان الحريَّة المعنويَّة تتقدم في الغالب الحريَّة العمليَّة فان الانفس تنزع اليها شوقاً ورغبةً فامّا ان تنالها بالسلم والراحة واما ان تدخل جنتها تحت ظلال السيوف. ولمَّا كانت الحرية كالماء الزلال الشديد البرودة وجب على القارب الظامئة لها ان لا تتهافت عليها كما يتهافت الظمآن على المورد العذب فان ذلك يضرّ بالجسم وربَّما جلب انوبال كما وقع للفرنسيس في ثورتهم الاولى عام ١٧٨٩ اذ اهرُقت الدماء وانتهكت الحرم وقُتل البريءُ. ومن المعلوم ان امزجة الناس تختلف على حسب اختلاف المواقع فرب داءٍ في انكلترة يعالَج بمقدار من الدواء لو تناولهُ المصاب بذلك الداء في غيرها لما رأى منهُ الشفاء بل ربَّما كان الدواء النافع في بلد مضرًّا في غيره. وهكذا الاستقلال الذاتي فلو مُنحت حرية الانكليز بتمامها للالمانيين مثلاً لأضرَّت بهم فعلى الحاكم ان يتبين الطبائع ويتأمَّل الاحوال ويتفقَّد الاخلاق ويتعهَّد العادات ليجعل لقومهِ من الحرية ما يعينهم على سلوك سبل التمدن ويقيهم التهوُّر في مهالك الافراط

ثم اعلم ان موانع الاعمال كثيرة ومنها الموانع الطبيعية وغير الطبيعيَّة. فامَّا الطبيعيَّة فمثالها البحور والجبال والاودية ونحوها وقد ذلَّلها الانسان بقوة عقله واجتهاده بل اتخذ بعضها وسيلةً للتسهيل وطريقةً للتيسير فكان البحر من حواجز تجارته وعوائق صناعته فالقى عليه خشبة تخترق امواجه وتعارض انواءه فصار واسطة للوصل بعد ان كان للقطع والفصل. وكانت الجبال اوتاداً في مسالكه فوطأها بالطرق الممهَّدة بل اخترقها وجعل لبواخره البرّية في قلوبها طرقاً سوية. ثم لم يكتفِ بجميع ذلك حتى رام ان يتخذ في الافق سبلاً فانشأ المركبات تطير به مقرّبة للاذهان اخبار بساط سليمان. فان قيل ان سيرها لا يزال غير اراديّ قلنا انَّ مَن قصد وعمل نال الامل

وامَّا الموانع غير الطبيعية فقد نشأت في غالب الاحوال عن غفلة الانسان او عن اهماله وهو قادر على ازالتها لصدورها عنهُ. فاوَّلها الجهل ودواؤُهُ العلم. ثم الاخلاق

السيئة وعلاجها الادب . ثم الافراط في حب الذات وهو التناهي الموصوف بالغلط ودواؤهُ اختيار خير الامور اي الوسط . ثم الغلوّ في الدين وعلاجهُ يسير

واما التفرّد في الاعمال وتقييد التجارة بالرسوم الباهظة والمكوس الداخلية والاخطار والامتياز وتداخل ارباب الحكم فيا لا يعنيهم كما كانوا يفعلون في اوربة قبل هذا العصر فجميع ذلك خطأ وضلال مصيرهما الى الزوال . فقد كان الحكام في فرنسة وانكلترة ينهون اصحاب المعامل الصناعية عن نسج الاقمشة الّا بمقدار ما أذنت فيه اللجان المشكّلة لذلك وقيل انهم كانوا يأمرونهم ان : « انسجوا من اللون الاحمر مقدار كذا . ومن الاصفر او الاخضر او غيره كل ذلك بمقادير معينة » . وكان الانكليز يمنعون الفرنسيس من المجيء الى بلادهم لكيلا يتعلموا صناعتهم او يقلدوا رسومهم وكان الفرنسويون يعاملون الانكليز بمثل ذلك

فهذه الموانع والحواجز لا تفيد فائدة لان الانسان ادرى بامور معاشه خصوصاً ما يتعلق بالاخذ والعطاء والصنعة والمهنة ولاجل هذه الاسباب وغيرها ما برح الاقتصاديون يحثون الحكام على تأييد الاستقلال بالاعمال وترك القواعد المانعة من سير التجارة والصناعة في مسالكها الطبيعيّة على حسب الملائم لاحوالها ولطبيعة العاملين بها وبواقع بلادهم

الفصل الرابع

في التعاون على الاعمال

اعلم ان الوجه المفيد بل السبيل الوحيد للتعاون على العمل انما هو عقد الشركة والشركة اختلاط شيء بشيء كمال بمال او عمل بعمل وهو من الشَرَك بالتحريك اي حبالة الصائد لما فيه من اختلاط بعض حباله بالبعض ثم أطلقت على العقد مجازاً ثم صارت حقيقة عرفيّة كما ورد في الكتب الفقهية

والشركة نوعان حسية ومعنوية فالشركة الحسية معلومة فلا حاجة الى بيانها . واما المعنوية فهي الشركة يعقدها اثنان او اكثر للقيام على عمل معنوي دينيًا كان او علميًا كما لو اتفق زيد وعمرو على تأليف كتاب او اشتركا في عمل البرّ وجمع الصدقات ومن ذلك الشركات الخيرية والجمعيّات العلميّة

والشركة الحسية المالية كثيرة الانواع كما تعلم على اننا لا نروم البحث في انواعها فان القصد اظهار منافعها ولا ننظر في الشركة الخاصة الغرض ايضاح الشركة العامة وهي العقد بين مئين والوف كثيرة من ارباب رؤوس المال ينضم بعضهم الى بعض للقيام بنفقات الاعمال المظيمة كانشاء طرق الحديد والسفن التجارية والاسلاك البرقية وخرق الجبال ووصل البحار

وللشركة العامة فوائد لا تحصى ومنافع لا تستقصى فلله در من فتح بابها واوجد اسبابها وجمع رأس مال الافراد كما تجمع قطرات الماء في الحوض للقيام بما يعجز عنهُ الفرد الواحد من عظائم الاعمال فان التاجر والاثنين بل الالف والالفين لم يكونوا قادرين على اختراق جبال الالب الفاصلة بين فرنسة وايطالية وعلى مزج البحرين يلتقيان بخليج السويس بل لولا وجود الشركات العمومية لما أنشئت الطرق الحديدية ولا وجدت السفن الجارية ولا مُدّت الاسلاك البرقية. ولا غرابة في ذلك فان ما لا يقوى عليه الواحد من الناس يستطيعه الجمع والقوة المجتمعة اقوى من العدد الكثير

ولا شك ان نجاح اوربة وتقدمها في العمارة وحسن الحال وبلوغها اقصى درجات الكمال في المدنية والثروة كل ذلك ناشئ عن تلك الشركات المترتبة على استقلال الاعمال وروح الحرية الذي انتشر في تلك الممالك فاحياها حتى ان ثروة الملوك التي كان يُضرب بها المثل لم تعد شيئاً يذكر بالنسبة الى ثروة الشركات العمومية

ومن العجب اننا مع ضعفنا المستلزم للتعاون مؤثرون للانفراد في الاعمال حتى لا ترى في اقطارنا شركة عمومية فاذا وُجد منّا مجتهد يرغب في انماء ماله فلا يتجاوز فكره حدّ الاثرة ولا يبالي بالرفيق او الجار ربّما سرّه بقاء غيره على مركز لا يتحوّل عنهُ او انحطاطه عن ذلك المركز لتحصل لهُ المزية والافضلية فهذه الاراء العقيمة والمقاصد السقيمة من الاسباب الذاهبة بثروتنا النائمة لتقدمنا ونجاحنا

اما الافرنج فينكبّون على الاعمال وجمع المال لتوسيع المعاش في الحال والاستقبال ولا يجهلون ان الثروة الخصوصية لا تحصل الّا من الثروة العمومية فاذا يسّر الله لاحدهم رزقاً واسعاً افاض منهُ على عياله ما يوجب لهم الراحة والرفاه فاذا اتسعت موارد تجارته مال الى الراحة وسلّم اعماله الى ابنه او نسيبه يديرها انتفاعاً بها او باع من احد الناس معرفة عملائه لكيلا تكون راحته سبباً في تلاشي اعماله الرابحة. وفيهم

من الغيرة وحب الالفة ومعرفة الحقائق ما يبعدهم عن الشقاق والاختلاف ويزلفهم الى الوفاق والائتلاف فتراهم يتنافسون ولكن في اتقان الاعمال ويتسابقون ولكن الى مراتب الكمال فلا يحسد احدهم الآخر على رزق اصابه او نعمة نالها ولكن يسعى للحصول على مثل ذلك بالوسائل الخالية من شبهات الخيانة وادران الغدر والخديعة

واما نحن فقد تولانا الحسد الذميم فشغلنا حال غيرنا عن شرّنا او خيرنا فترى الرجل منّا ينام باحدى مقلتيه ويسهر بالاخرى على مراقبة جاره يهدم باليمين طريقه ويحفر بالشمال حفرة لاخيه يتمنّى لنفسه الثروة ويجلب الفقر لصديقه. وعلى هذا السبيل المضلّ نرى التاجر والزارع والعامل والصانع والمأمور والكاتب والغني والفقير. فاذا شرع احدنا في امر نافع لم ننظر اليه من حيث هو بل نحكم على فساده بمجرَّد توهُّم العجز في صاحبه وبعبارة ثانية انَّا ننظر الى العامل لا الى الاعمال والى القائل لا الى المقال واذا وفر مال المرء فصار غنيًّا قلنا على مسمع من الناس انهُ اختلس المال او سرقهُ واذا قرن الله سعيهُ بالتوفيق زعمنا انهُ لقي في الارض كنزًا

وذلك فضلًا عن التعصب الديني والخلاف الجنسي فاننا بين مسلم ومسيحي واسرائيلي وهؤلاء بين الاجناس المختلفة والمذاهب المتنوعة نحسب المشاركة شركًا والموازرة ضلالًا. ومن كانت هذه احوالهم فكيف يرجى لهم النجاح او كيف يؤمل ان تكون لهم شركات عمومية وجمعيات تعاونية لا جرم ان ذلك لا يتمّ لهم الَّا اذا طهروا الانفس من ادران التعصُّب في امر الدين والجنس والبلد والمشرب حتى يكونوا أمَّة واحدة في وطن واحد لا صلة بين امور دينهم وامور دنياهم بمعنى ان يكون الدين كما هو بالواقع ونفس الامر نظامًا للمعتاد وقانونًا للعبادات لا يمنع من اتحاد الناس وان اختلفوا فيه وبعبارة ثانية ان يكون بمنزلة الصلة بين المخلوق وباريه. فاذا طهرنا حقائق الاديان من اوهام التعصب الوخيم واخلصنا الانفس من شوائب الحسد الذميم توفرت لنا اسباب الاتحاد وانفتحت ابواب الموازرة التي لا عمران الَّا بها ولا نجاح الَّا معها والَّا فلا سبيل لخروجنا من خطة الهوان والشقاء والفاقة والعناء بل يكون مثلنا كمثل مريض احمق يعرض لهُ الدواء فينفر عنهُ متحملًا ألم الداء او مثل متناوِم في الكسل شبَّت النار على مقربة منهُ وتعلقت باطراف ثوبه فاحرقته ثم نالت جثّته ولم يطلب النجاة منها. الهمنا الله الغيرة فهي وسيلة النجاة وذريعة النجاح

الكثلكة في ماردين

رواية لشاهد عياني نشرها الاب لويس شيخو اليسوعي

مقدمة

ماردين احدى المدن الكبرى الشهيرة في بلاد الجزيرة موقعها فوق جبل عالٍ يُشرف على سهول ما بين النهرين الممتدَّة الى جهات الخابور وضفاف الفرات على مسافة ٨٨ كيلومتر من ديار بكر في جنوبها الشرقي وبيوتها راكبة فوق بعضها على منحنى الجبل من جهاتهِ الثلاث والجهة الرابعة تمتدُّ فيها الحدائق الغنَّاء والبساتين الخصبة الجامعة لضروب الثمار الجنيَّة والبقول الطيبة الجزَّة. وفي رأس الجبل قلعة حريزة واسعة الارجاء مرتفعة الاسوار يرقيها البعض الى عهد ملوك الاشكانيين في قرون النصرانيَّة الاولى فشيَّدوها على ما هو المظنون في وجه الرومان ليمنعوا بها بلادهم عن غزواتهم فكانت من ثغورهم الحصينة كما انَّ الرومان جماوا في قربها مدينة نصيبين ليردُّوا غارات الفرس فكانت تلك البلاد كدار حرب متواصلة

امَّا اسمها ماردين فقد اشتقَّهُ كتبة العرب من التمرُّد والعصيان والاصحّ انَّهُ دُعيت بذلك لاحتلال المرَدَة فيها وكان المرَدَة قوماً من العجم شديدي البأس ومعنى اسمهم في لغتهم رجال القوَّة وذوو البطش. وبقيت ماردين في حكم الفرس الى ظهور الاسلام ففتحها العرب وتناقلت في ملكتها الدول الاسلاميَّة الى ان صارت في حكم بني أرتق في القرن الثالث عشر للميلاد فحصَّنوها وزيَّنوها بالابنية والقصور والمدارس ولمَّا ظهر تيمورلنك في اواخر القرن الرابع عشر امتنعت عليهِ ماردين مرَّة اولى ثم حاصرها سنتين ففتحها ثم صارت بعد ذلك في حكم آل عثمان مع بقيَّة بلاد الجزيرة

امَّا الدين فيظهر من بيعها وخصوصاً بيعتي الكلدان والارمن ومن آثارها المختلفة ان النصرانيَّة انتشرت فيها منذ اجيال عديدة حتى القرون الاولى للميلاد. ولمَّا نشأت بدعتا النسطوريَّة واليعقوبيَّة جماتا ماردين احدى. واقع نزاعهما الَّا انَّ اليعقوبيَّة اضحت اثبت قدماً واعزَّ جانباً لسكون بطاركتها في دير الزعفران قريباً من ماردين ولم يكن

للكثلكة في تلك المدينة كاملة راجعة الى اواسط القرن السابع عشر حيث ابتدأت نهضة الكاثوليك في بلاد الشام وما بين النهرين بهمّة بعض المهتدين وخصوصاً بمساعي المرسلين اللاتينيين وكان اوّل من نشر الايمان في ماردين منهم الكرمليون والكبوشيون نحو السنة ١٦٤٠ فردُّوا بعض الارمن والسريان

وفي السنة ١٦٦٢ اتفق السريان الحلبيّون الكاثوليك بعد وفاة يشوع ابن قشه اليعقوبي على انتخاب بطريرك كاثوليكي يردّ ملّتهُ الى حجر الكنيسة الكاثوليكيّة فاختاروا لتلك الرتبة كاهناً فاضلاً اسمهُ اندراوس اخيجان كان اصلهُ من ماردين هداهُ الى الايمان الاب ميشال نو اليسوعي وارسلهُ الى رومية فتهذَّب في مدرسة الموارنة واحرز العلوم الدينيّة ثم رجع الى بلادهِ . فلمَّا سيم بطركاً اخذ يسعى بانارة ملّتهِ لكنَّ الظروف لم تسمح لهُ بالابتعاد عن حلب فأرسل الى ماردين الاب ميشال نو والاب ربنه بيليون والاخ هيلار لينشروا هناك العقائد الكاثوليكيَّة بين اليعاقبة . ففعلوا نحو السنة ١٦٧٩ واخذوا يرشدون الناس ويثبتون صدق التعاليم الكاثوليكيَّة فردُّوا كثيرين من المراطقة . غير ان بعض اليعاقبة لم يذعنوا للبطريرك الشرعي واتخذوا لهم بطريركاً دخيلاً اسمهُ عبد المسيح الرهاوي فاثار هذا مع اهل ملّتهِ وخصوصاً احد زعماء شيعتهِ المسمَّى عبد النور وابنهِ موسى وكهنة اليعاقبة فتنةً عظيمة على الكاثوليك ورشوا حكّام المدينة فقبضوا على المرسلين اليسوعيين وكبَّلوهم بالحديد واذاقوهم في الحبس الوان العذاب ولم يطلقوا سبيلهم الّا بعد ان اغرموهم مالًا وافراً والزموهم ان يعودوا الى حلب وكانت وفاة الاب ميشال نو في فرنسة بعد ذلك بقليل في ٨ آذار سنة ١٦٨٣ (١

على انَّ الكاثوليك في ماردين بعد نفي اليسوعيين بقوا في حيرة معرَّضين لاضطهادات اليعاقبة الى السنة ١٧٠٠ ففي تلك السنة جاء ماردين احد ابنائها الارمن الكاثوليك المدعو ملكون طازباز الذي كان ولد سنة ١٦٥٤ ثم درس في رومية في مدرسة مجمع انتشار الايمان فعاد الى وطنهِ وكان من اكبر سعاة الدين الكاثوليكي فيهِ فردَّ معظم الارمن الغريغوريين وقسماً كبيراً من السريان اليعاقبة كما سترى من رواية الاثر الذي ننشرهُ آنفاً

---

١) تجد تفاصيل رحلتهِ الى ماردين وتبشيرهُ فيها في مجلّة الابحاث (Etudes, 1877², 582-601)

وهذا الأثر عبارة عن كتيّب صغير الحجم كُتب منذ نحو ١٥٠ سنة ألّفهُ احد تلاميذ القسيس ايليا وهو لا يذكر اسمهُ وانّما يدعو القس ايليا معلّمهُ ويروي خبر رجوعهِ عن لسانهِ بقولهِ: قال معلّمي. وايليا هذا يُعرف بابن كزير ذكرهُ حضرة القس اسحاق ارملة في كتابهِ الزهرة الذكيَّة في البطريركية السريانية الانطاكية (ص ٩٤—٩٥) ولا يشير فيهِ الى الكتاب الذي نحن في صددهِ ولعلّهُ لم يقف عليهِ. كُتبت هذه القصّة باللغة الدارجة في ماردين فرويناها على لهجتها لم نغيّر منها الّا بعض الاغلاط الظاهرة التي تعبث بالمعنى في شيء. وهذه النسخة قد وقع من وسطها وآخرها بعض صحائفها فطلبناها في مظانّها فلم نجد منها نسخة ثانية ولعلَّ نشرها يكون داعياً للبحث عن باقيها. وكان حضرة الاب الدومنيكي س. شيل المرسل اللاتيني في الموصل حصل على نسخة من هذا الاصل الذي في يدنا فنقلهُ الى الافرنسية ببعض التصرُّف ونشرهُ في مجلّة الشرق المسيحي (ROC, I, 42-87) امّا الاصل العربي فلم يُنشر حتى الآن. وهو:

بسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد

نبتدي بعون الله وحسن توفيقه ونكتب قصة القسيس ايليا وما جرى لهُ

(قال): لما كانت السنة الف وسبعمائة مسيحيَّة جاء الى بلد ماردين ابونا ملكلاً ورتبيت ابن مقدسي مراد من بيت طازباز رسولًا من البيعة المقدَّسة تلميذًا ومعاون في مدرسة انتشار الايمان الحقيقي الذي في مدينة رومية العظمة. ولما وصل الى ماردين نزل في بيت ابيهِ. وكان قليل ناس في ماردين من الكاثوليكيين وكانوا هل ماردين كلهم متعصبين وثابتين في الهرطقة فبالتاطف والمعاني والتعاليم الالهيَّة اجتذب بعض الناس العقلاء الى ايمان البيعة المقدَّسة. ولما استمعوا الهراطقة بهذه التعاليم صاروا يوشوشون عليهِ ويدمدمون وارادوا قتلهُ وتجريرهُ الى الحكام فاحتمل عنهم اضطهادات كثيرة وكل ما كان يكثر الاضطهاد كانت تكثر اولاد القاتوليقيين من النساء والرجال وكان سيدنا الورتبيت المذكور يعرّفهم ويقدّسهم سرًّا. ولما ترايدوا رئت جماعة المسيحيين طلبوهُ ان يمضي الى كنيسة مار جرجس التي في ماردين الى طائفة الارمن فهو قال: ان لم ترفعوا الهرطقة التي في بيعتكم فلا ادخل فيها ولا اقدّس ولا اكرز. فتشاوروا

بعضهم مع بعض ورفعوا المرطقة من كنيستهم ولكن بعض اناس من القرقعين (١ صاروا يدمدمون ويضطهدونهُ ويشوشون قلوب الناس والبعض انعزلوا من الكنيسة وصار تشويش كثير وخسارات كثيرة وانقسم الشعب الى قسمين حتى ان البعض من اهاليهِ واقاربهِ كانوا يضطهدونهُ ويريدون قتلهُ ورجمهُ حتى ان يوماً من الايام امرأة من عجائز السرّ في وسط الكنيسة ضربتهُ وكسرت عكازتهُ وخزقت ثيابهُ وقباعتهُ وهو احتمل كالخاروف الوديع . وايضاً طائفة اليعاقبة كانوا يعملون عليهِ اضطهادات كثيرة ما تحصى حتى التزم يمضي الى كنيسة بربارة التي هي غربي ماردين وكانت كنيسة خربة متروكة من زمان ونظّفها من الزبالات التي كانت بها ورسمها وصار يقدّس فيها وكانت الناس افواجاً افواجاً يمضون اليهِ حتى يعترفوا ويتقربوا فكثر حسد المراطقة وزاد

وارادوا ان يقلعوهُ من هناك ايضاً فما امكنهم بل صار لهُ خسارات كثيرة جسدانيّة وكنت تبصر الناس في ايام الشتاء والثلوج في الليل يمضون ويروحون الى كنيسة القديسة بربارة وكانوا يوماً عن يوم يزدادون وينمون وانعزل من الكهنة ومن الشمامسة ومضوا اليهِ

فلمّا عاينوا اعيان الطائفة جمعهم تبعوهُ وبمشورة حاكم البلد جابوهُ من كنيسة القديسة بربارة الى كنيسة العامرة في ماردين بيعة مار جرجس واقام بها وصار يصلي وصار رئيساً على الجميع ودفع جميع المرطقات من الكنيسة ومنع الكهنة الذين لم يؤذنهم من تقديم القربان . فاشتُهرت اخباره في جميع البلاد مثل دياربكر والرها وحلب وعينتاب وطوقات واستنبول وارض الروم وغيرها وجاء اليهِ من التلاميذ شمامسة بتوليون عالمون ماهرون في اللسان الارمني واقاموا الصلوات في الكنيسة وصار هو يطعمهم ويسقيهم ويكسيهم ويعلمهم العلوم مثل النحو والمنطق والفلسفة وكانوا كلهم من اولاد اشراف البلاد الكاثوليكيين

وجاء ايضاً من عينتاب شماس اعمى من العينين لكن كان قلبهُ مفتوحاً لانهُ كان يقرأ جميع الكتب المقدسة وتفسيرها من ظاهر قلبه وكان اسمهُ شماس نرسيس وجاب معهُ ايضاً شماسين من عينتاب الواحد اسمهُ ابراهيم والآخر اوهان . فلمّا عاينوا الكهنة القرقعون ما جرى لهم ازدادوا حسداً وكادوا ان ينفطروا ويموتوا من حسدهم فالتجوا الى

١) القرقع في لسان اهل ماردين وحلب الرجل الترتار الابله

اليعاقبة الى بطرك كوركس (١ الموصلي وهذا كان رجلاً هرطوقياً عنيداً فاشار عليهم ان ينعزلوا منه واعطاهم مكاناً في كنيسة اربعين شهيداً (٢ التي في داخل ماردين وصاروا هم يصلون في جانب واليعاقبة في جانب وانعزلت معهم من تابعيتهم مقدار مائتي نفس من رجال ونساء وصبيان ومعهم شمامستهم المرقمون فبقوا مقدار سنة يصلون في الاربعين

قال معلمي: وكنتُ انا ايضاً هرطوقياً شديداً جداً وكنت اغار كثيراً على الهرطقة وكنتُ شماساً كبيراً وكاروزاً في الاربعين وصرت اكز على الطائفتين واثبت لهم الهرطقة. فلما استمع بي ملكون الورتبيت المكرَّم صار يرسل اليَّ اناساً يجادلوني افواجاً افواجاً يوماً بيوم وصاروا يتوسَّلون بي ان اروح احضر عندهم لكن انا الفقير كنت امتنع وازداد عصياناً بالازيد. فلما صار مقدار سنتين زمان بعد مجي ملكون الورتبيت الى المدينة يوماً من الايام في اول احد الصوم وكان نهار شاتي ألهمني الله ان اروح ادخل الى عند هذا الاب المكرم وهو ليس يعرفني بالوجه بل بالاسم. فلما مضيت اليه قبل الظهر وجدتهُ في القلاية وحدهُ فسلمت عليه ولم اقبـل يديهِ فسألني: من اين انت يا اخي ومن اي بلد ومن اي طائفة؟ فقلتُ لهُ: انا حلبي. وكلمتهُ بلغـة اهل حلب وقلت لهُ: انا من طائفة السريان. فترحب بي وبدأ يقول: كيف حال ابونا البطرك فصرت احفهُ. وبينما نحن هكذا نتكلم مع بعضنا اذ جاء واحد من الشمامسة كان يعرفني وفتح باب القلاية ليدخل فلما ابصرني رجع الى خلف فتعجب الورتبيت من رجوعهِ وزعق عليه (٣ فلم يردّ ولكن بعد قليل نظرتهُ قد جاء وجاب معهُ ثلاثة او اربعة من الكاثوليكيين. فلما دخلوا الى القلاية بفرحة عظيـمة واحد بدا يحلّق قدامي ماشة النار (٤ والآخر سفوداً والاخر مفتاحاً فصار الورتبيت متعجباً منهم فاجابهم قائلاً: هل تعرفون هذا الرجل حتى تعملوا معهُ هكذا. فقالوا: كيف ما نعرفهُ هذا هو شماس ايليا ابن انكزير الذي تسأل عنهُ وترسلنا اليه وهوذا قد جاء برجله ها هو وها انت. ففرح الورتبيت فرحاً عظيماً وامر ان يعملوا قهوة واذ نحن في النية حتى نتكلّم مع حضرة الورتبيت الّا وقد جاء راهبٌ هرطوقي

---

١) هو جرجس الثاني اليعقوبي ولّاهُ اليعاقبة البطريركية سنة ١٦٨٦ فبقي فيها الى السنة ١٧٠٨ وكان من ألدّ اعداء الكاثوليك (اطلب تاريخ البطريركية السريانية لحضرة القس اسحاق ارملة ص ٩٠-٩٢) ٢) هذه الكنيسة اكبر كنائس اليعاقبة في ماردين الى يومنا

٣) زعق عليهِ اي انتهرهُ ٤) يحلّق اي يرمي والماشة الملقط. يريد بذلك اكرامهم لهُ

يقال لهُ مفريان شمعون الطوراني ومعهُ شماس فلما ابصرني اندهش وقال: كيف جيت ياشماس الى هاهنا. فاعتذرتُ قائلاً: اني هربت من المطر لان كان بيتنا مجاورًا هذه البيعة فلما بدأوا بالحديث مع بعضهم بعض بدأ المفريان يجيب امثالاً زقاقية ليست من الكتب فحرتُ انا وانحسرتُ جداً وقمت رحت وخليتهم. وبعد ما رحت جاء لعند الورتبيت واحد من الخواجات يقال لهُ خواجا عبد المسيح ابن خواجا اصلان وكان من اشراف الطائفة متخاصماً مع المفريان وطردهُ من عند الورتبيت وقال لهُ: انتم يعاقبة ونحن ارمن ايش لكم منا. انتم في حالكم ونحن في حالنا تريدون ان تعملوا بيننا فتنة. قال معلمي: فمضى المفريان واشتكى عليَّ عند البطرك

فعند صلوة المساء عاد البطرك وقال: اين كنت اليوم ياشماس ايليا. فنظرت ما بقي يخلصني الّا الصدق. فقلتُ لهُ: كنت عند ملكون ورتبيت. فقال لي: لماذا كان رواحك اليه لاي سبب. قلت: رحت حتى ابصرهُ واجادلهُ وجهاً بوجه ولكن قبل ما تكلم مع بعضنا بعض الّا جاء المفريان ومعهُ الشماس ابن سيدي. فقال: لماذا لم تكن مع المفريان لان المفريان يقول: حين ما رآني هرب هذا الذي اقمتهُ لنا كاروزًا على طائفة السريان ومنعتَ المطارين والرهبان من الكرز. فاجبتُ انا للبطرك وقلت: انني هربت من ضعف كلامه لانهُ تكلم بجهل امثالاً زقاقية ليست من كتاب ولا من انبيا ولا من رسل ولا من معلمين. فقال لي: أيكون ايضاً قد افسد ضميرك ابن الطازباز لان هؤلاء كل من رأوهُ معلماً ويفهم شيئاً يصرفون عليه ويلجّون ان يفسدوا نيّتهُ لكن انت كن ثابتاً ولا تظن ان في الدنيا ايماناً الّا ايمان السريان وهو مثبوت من جميع المعلمين وهؤلاء ينسبوا المعلمين والرؤساء والآباء الفائقة ويقولون انهم كانوا على اعتقادهم ونحن نقول كيف يمكن ان يكون طبيعتان ومشيتان بعد الاتحاد لان الاتحاد قد جعل الطبيعتين طبيعة واحدة والمشيئتين مشيئة واحدة والاقنومين اقنوماً واحداً. فقلت لهُ: انا قد تعلمت هؤلاء من صغري فما بقي احد يقدر يمنعني عن اعتقادي. فقال: لماذا ما اصطبرت حتى تعاون المفريان. فقلتُ لهُ: ما قلت لك لانهُ تكلم باشياء لم تناسب العقل وخفت ان يصير قلق وفتنة فخليت وهربت. فقال: ايضاً انا قلبي يخاف منك لان هؤلاء يعلقونك مثلما علقوا غيرك لان اي من صار معلماً في السريان افسدوهُ مثل بطرك اندراوس وبطرك بطرس

ومفريان اسحاق ابن جبير ومطران عبد الجليل الموصلي ومطران ايشوع الحلبي واسقف سفر المارديني ومطران كرنوك الدياربكرلي (١ وغيرهم من القسوس والشمامسة الذين قبلوا التسركل (٢ والنفي وكانوا اغنياء وافتقروا من دفع الغرائم وخلوا ايمانهم الذين ولدوا فيه وتبعوا ايمان البابا الروماني. فقلتُ لهُ: لعل هؤلاء جميعهم كانوا جهلاء او قليلي المعرفة او ليس كانوا لخصوا الكتب. فقال: لا كانوا علماء ولكن الشيطان اطغاهم. فقلت: حاشا ان تكون من افعال الشيطان هل يمكن ان هلقدر سلاطين وهلقدر معلمين وباطرية (٣ ان يغلطوا. او يروحوا جميعًا الى جهنم. فقال: نعم جميعهم في جهنم والبيعة المقدسة هي بيعتنا وما يمكن طائفة تخلص الا طائفتنا. وطال الكلام بيننا وبينهُ فقلت لهُ: طائفة الروم كيف هي أما لها خلاص مع كونها تزيد الف رأس على طائفتنا عن موجب ما نسمع فهل ايضًا كلهم يهلكون. فقال: نعم. قلتُ: والموارنة ايضًا. فقال: نعم. فقلتُ: اذن ما صُلب المسيح وما بشّر بولس والرسل وسفكوا دمهم الا لاجل طائفة اليعاقبة فقط. فقال: نعم

فمن هاهنا في ذلك الوقت والساعة تحرّكت فيَّ المحبة الروحيَّة وحلَّت نعمة روح القدس في قلبي وصرت افتش على خلاص نفسي وصرتُ اجادل كثيرًا مع تلاميذ سيدنا ملكون وترتبيت في جميع الاماكن في الكوركجيَّة والترزيَّة والقيصريَّة (٤ والشوارع والازقة وكانوا يبصرونا بعض اناس من اليعاقبة وبعضون يخبرون البطرك فكان يدعوني ويقول لي: ايش تجادل مع هؤلاء اخاف عليك ان يصيدوك باشراكهم. فكنت اقول لهُ: لا تخاف عليَّ انا ما اصطاد

وفي ذلك الزمان جاء ورتبيت من الارمن هرطوقي يسمَّى ارميا وجاب معهُ فرمان من السلطان كي يضبط جماعة الارمن والكنيسة. فبعض من الارمن الهراطقة ارادوا ان يحكّموه عليهم ولكن اكابر الارمن الكاثوليكيين منعوه فتعلق في اليعاقبة واشاروا عليه ان ياخذوا فرمانهُ ويمضوا الى المفتي ويقولوا: هؤلاء ما يقبلون فرمان

---

١) اكثر هؤلاء المشاهير مرَّت في المشرق تراجمهم وقد روى اخبارهم حضرة القس اسحاق ارملة في تاريخهِ الحديث ٢) التسركل في التركية النفي

٣) يريد بالسلاطين الملوك النصارى . وبالباطرية المرسلين اللاتين الكاثوليك المعروفين بلمهم واللفظة من الايطالية (padre) ٤) كلها اسواق ماردين

السلطان . ومن جهة هذه الحركة راح على ملكون ورتبيت مقدار دراهم كثيرة حتى منعوا ذلك الورتبيت واخذوا فرمانهُ وراح وما عاد لهُ رجعة

اما ايمان البيعة المقدَّسة فكان ينمو يوماً بيوم والهراطقة اذلّهم الله ما كان يصعد من يدهم فرد شيء كانوا يشنعون على الورتبيت تقليعات وتشنيعات الوان الوان واشكال اشكال ما تقدر تصفهم واحدة براحدة لان الذي يسمعهم يتوه عقلهُ من كلام الكذب والزور والبهتان . اولًا كانوا يقولون جاب معهُ من رومية خزنة ذهب وفضة ويفرقها على تابعيهُ كلهم يأخذون منهُ علوفة . ثانياً يقولون: انهُ قد عمل مندرونتين (١ واحدة خشب وواحدة حجر والبسها جوخاً احمر واذا مضى اليه واحد يعترف رجلًا كان ام امرأة يحملهُ اولًا مندرونة الحجر فبعد ان يعترف يحملهُ مندرونة الخشب ويقول: قد غفرت لك خطاياك . وهذه التشنيعات والتهمات كان قسوس الارمن يحكونها في الاسواق بلا حياء ولا خوف من الله كانوا يقولون: لماذا يقرأ الانجيل بالعربي حتى يعرفوا الناس ايش في الانجيل لان الانجيل هو سرٌ ما يجب ان يعرف احد ايش فيه . وغير تكلمات التي ما تقدر تروبها

فلمَّا ابصرت انا الحقير هذه الامور وغلبني ملكون ورتبيت في المجادلة ايضاً من جهة الاقنوم الحاوي الطبيعتين وانا كنت اعتقد ان ناسوت المسيح لهُ اقنوم فاجابني ان جميع النصارى اعتقادهم بالثالوث المقدس فان كان لناسوت المسيح اقنوم صار رابوعاً ليس ثالوثاً وهذه اعتقادات نسطور الملعون بعينه . وايضاً سألني هل تعتقد بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية . فقلت: نعم هذا هو اعتقادي . فقال: اثبت لي العلامات التي في كنيسة اليعاقبة . فلم اقدر اثبت لهُ الَّا بالعناد فقال لي: يا حبيبي ان الكنيسة الرومانيَّة المقدَّسة هي هي الكنيسة الحقيقة وليس بدونها خلاص وهي كسفينة نوح كل من خارجها غرق وهي التي قدسها السيد المسيح بفمه حين قال لمار بطرس: انت الصخرة وعليك ابني بيعتي وابواب الجحيم لن تقوى عليها واعطيك مفاتيح ملكوت السماء ما ربطتهُ على الارض يكون مربوطاً في السماء وما حللتهُ على الارض يكون محلولًا في السماء . وقال ايضاً لمار بطرس: ارعَ كباشي ارعَ نعاجي ارعَ خرافي . وقال لهُ ايضاً: يا بطرس يا بطرس هوذا الشيطان يريد ان يغربلكم كما يغربلون الحنطة وانا اطلب من اجلك ان لا ينقص

١) المندرونة في لغة ماردين المحدلة

ايمانك وانت ترجع وتثبت اخوتك. وهذا بطرس الذي صُلب في رومية منكساً وتثبت كرسيّهُ الاعظم في رومية من جميع الجامع وصارت الكنيسة الرومانية هي هي البيعة المقدّسة التي لا تغش ولا تنغش ومنها تناسلت البابا وية وهي التي ترسل وتجمع من اقطار المسكونة ومشهود لها من سائر الطوائف ومن جميع الآباء الماضية والحاضرة والآتية وهي التي يخرج منها القديسون جيلًا بعد جيل عابدين ومثبوتين عاملين الآيات والعجائب الصادقة قبل موتهم وبعد موتهم ومنها تناسلت الملوك والسلاطين المسيحيون الذين يلقون تيجانهم الى الارض ويقبّلون اقدام الحبر الاعظم نائب السيد المسيح وخليفة مار بطرس

فلما استمعتُ بهذه الخطب وغيرها والمقالات الحقيقة اعتقدت من كل قلبي وامنت ايمانًا ثابتًا حتى ان ليس بقي احد يقدر يقطعني من محبة البيعة المقدّسة ولا من طاعتها لا العلو ولا العمق ولا المقاومة ولا السيف ولا الطرد ولا الحبس ولا الجلد ولا الغرائم ولا موت ولا حيوة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات ولا الزمهات ولا خليقة اخرى تستطيع ان تفصلني من اعتقادي ومن ايمان البيعة المقدسة وشهد لي ضميري وما اكذب مظهرًا قدام جميع اهل المدينة في كل المواضع ان الحق هو هذا ولا غيره

وبدأوا يهجروني المراطقة اهل طائفتي وكذلك طائفة الارمن الهراطقة بقوا يكمنون لحارتي نهارًا وليلًا كي يقتلوني فاستمع بذلك ملكون ورتبيت فشجّعني وقال لي: لا تخف منهم لان السيد المسيح هو معك فمن يقدر يقاومك

اما الهراطقة فصاروا يثلبوني ويتهموني باشياء كثيرة. اولًا قالوا انهم قد قطعوا لهُ علاوة حتى صار منهم ويعطونهُ كل يوم قرش حتى يكرز بايمانهم. ثانيًا: قالوا اعطوهُ حمل حرير وكل يوم وكل ليلة يبات ويصبح عند ملكون ورتبيت في الاكل والشرب واشياء غير هذه. ثم دعاني البطرك الى القلاية وقال لي: يا شماس لماذا خنتنا وخنت ايمان ابائك واجدادك فاعلمنا كلنا نحن باطاون فقلت لهُ: الحق هو فرد حق والبيعة هي البيعة الرومانية المشهود لها من جميع القبائل والاجيال. وقد آمنت وصدقت ان جميع الخارجين عنها ماينالون الخلاص. فاغتاظ غيظًا عظيمًا ومن غيظه وانحساره بدأ يبكي مثل امرأة ويلطم على وجهه وصدره وركبته. فقلت لهُ: لماذا تبكي يا ابونا ايش جرى عليك لماذا تهلك وتُهلك رعيتك ايضًا آمن بالحق فليس هو عارًا. فازداد غيظهُ بالازيد

وقام ليشق ثيابهُ. ثم قال لي : يا شماس اقسم عليك بالكلمة التي حلّت في بطن مريم العذراء ماذا اعطاك هذا الورتبيت حتى دهاك وجنن عقلك. فقلت لهُ : قد اعطاني شيئاً ليس لهُ ثمن. بهذا الذي قد اعطاني قد وفى جميع الديون التي كانت عليّ. فقال لي : ايش كان عليك دين. فقلت : كان عليَّ دين ثقيل حتى كنتُ قد انكسرت وتحطمت فالان الله ينصره قد سدَّ جميع جوعي. فقال لي : فاذا كان عليك دين كان قلت لي وانا كنت اني دينك واعطيك ايضاً سرماية فقط عُد الينا وانا اعطي ايش من عليك. فقلت لهُ : اتركني حتى اشاور نفسي. فقال لي : ما بقي يصير منك شيء

فاتيت من عنده واخبرت سيدنا الورتبيت بكل هذا الكلام. فقال لي : طمعهُ في الارض فانهُ مثل سيمون الساحر بقوة المال والحيل والزور والحكام يريد ان ينشر هرطقتهُ

وبعد هذا حكم صوم الكبير فراح البطرك الى الدير وصباح اثنين الصوم اجتمعوا اليه جميع اهل المدينة القسوس والشمامسة والشعب وقسوس الارمن الهراطقة واتباعهم من الشعب وايضاً جميع القرى المحيطة بماردين اي قرية القصور والابراهيميَّة والمنصوريَّة وبنيبيل وجميع القسوس هؤلاء واكابرهم حضروا في دير الزعفران لاجل الشبقونو (١) اي الغفران وبعثوا خلفي الى الدير فرحتُ فاقعدني في الوسط بين هذا الجمع كلهِ ثم بدأ يقول لي : قل اعتقادك. فقلت لهُ : اعتقادي هو بالثالوث المقدس الاب والابن والروح القدس ثلاثة اقانيم واله واحد وان الاقنوم الثاني اي اقنوم الابن تنازل من اعلى السماء وحلَّ في بطن ستنا مريم الدائمة البتولية واتخذ منها الطبيعة الانسانيَّة بجملتها اي الجسد والنفس الناطقة واتحد بهما اتحاداً كلياً ومن جهة هذا الاتحاد يقال ان في المسيح طبيعتين ومشيئتين واقنوماً واحداً. فقال لي : غلطت لانك قد صرت افرنجياً. فقلت لهُ : ليس اغلط. ان كان قد غلط يوحنا فم الذهب غلطت وموسى ابن الحجر (بركيفا) ومار افرام ومار يعقوب قد غلطوا. وكان جنبهُ كتب موضوعة وكان بينهم كتاب تفسير الانجيل وكنت اعرف بذلك الكتاب من الاول فاخذتهُ وفتحتهُ. وضع ذلك اليوم بعينهِ اذ يقول هؤلاء الاباء : « تعالوا نفتش اعمال المسيح تعالوا نبصر لماذا تقاتل المسيح مع الشيطان بجوهر اللاهوت او بجوهر الناسوت ؟ فان قلنا بجوهر اللاهوت فليس تبان الغلبة شيئاً ولكن حارب بجوهر الناسوت وغلب الشيطان. والشيطان قال لن الطبيعة التي قهرتها هي

١) هي رتبة عند السريان كالاعتراف السنوي واللفظة هي سريانية (ܫܘܒܩܢܐ) معناها الغفران

قهرتني *. وقلت لهُ : ايش تقول بهذا الكلام ؟ فرفس برجلهِ الكتاب امام كل الجمع وقال : مثلك بليطين اشقياء خربوا الكتب . فقلتُ لهُ : اليس هذا كتابك لماذا تحويه عندك لماذا لم تحرقهُ اذا هو غلط ؟ فبكى وخرس ولم يردَّ كلمة الفرد لا هو ولا من معهُ بل سكت وبقي مثل الدوخان فقمتُ وخلَّيتهُ

وكان هناك رجل واحد كاثوليكي فقام وجاء قبلي عاجلًا الى عند ملكون ورتبيت واخبرهُ بهذه الاحوال كلها فخاف عليَّ الورتبيت وقال لذلك الذي بشرهُ : لماذا جيت وتركتهُ اخاف من هؤلاء القوم ان يقتلوهُ لانهم لا يخافون الله ولا يستحون من الناس . فقال لهُ : يا ابونا لو نظرت بعينك ما عمل لكنت تحيرت جدًا لاني ما اصدق يوجد جرعة (جرأة) في الدنيا مثل جرعة هذا الشماس لانهُ كجبار قوي قاوم الجمع كلهُ اذ كلهم خرسوا وبقوا يوشوشون بعضهم بعضًا قائلين : كيف كان يعرف هذا كرزة هذا اليوم وهي في هذا الكتاب . فعند ذلك الورتبيت ارسل قدامي جميع الشمامسة الذين عندهُ من الغرباء ومن اهل البلد فاتوا لاقوني جانيًا فوق البالسيق (١ راكبًا على فرس فلمَّا رأيتهم وصلوا اليَّ نزلت من على الفرس اذ لم اعلم ما هو الخبر ففي الحين احتضنوني وبدأوا يقبلوني على فمي وكل واحد يكلمني بلسانهِ فالذين اعرف بلسانهم سألتهم : ايش الخبر عندكم عزفوني . فقالوا : ان فلان الفلاني جاء واخبر الورتبيت بجميع ما جرى بينكم وبين البطرك انكم عملتم كذا وكذا وتكلمتم كذا وكذا فلاجل ذلك الورتبيت خاف عليك وارسلنا قدامك وقال لنا ان تحضروه اليَّ في هذه الساعة . فقلت لهم : سمعًا وطاعة اتركوني اصل الى البيت فابعث الفرس الى اصحابها واجي . فقال واحد منهم : لمن هي الفرس وانا اوديها وانت امضِ معهم بالعجل . فطلعتُ جيتُ معهم . فلاقاني الورتبيت الى باب الكنيسة البراني واحتضنني وفرح فرحًا عظيمًا وقال : امشِ اخبرني بالتفصيل بكل شي عملتهُ في هذا اليوم . فقلت لهُ : قد اخبروك يا سيدنا فماذا يعتاز . قال : اريد ان اسمع منك بفمك ايضًا . فاخبرتهُ فتعجَّب فقال : انك بالصحيح بولس الثاني وقد علمت ان قوة يسوع المسيح معك وعناية البيعة المقدَّسة . فصار في ذلك النهار اخوتنا الشمامسة فرحين مسرورين وبقيت عندهم تلك الليلة الى الصباح . ثم بعد ذلك شاع الخبر ظاهرًا في جميع القرى والبلاد ان الشماس اليا ابن الكزير المعلم الكاروز صار افرنجيًا وتبع ايمان

١) البلسيق طريق مرتفعة على آكام ماردين بينها وبين دير الزعفران

ابن طازباز وكتب البطرك بهذا الخبر الى كل البلاد وجميع مطارينهُ وعرَّف به المفريان اسحاق ابن اختهِ ولكن لم يقدر يمنعني من الكنيسة ولا من الكرازة وسيدنا ملكون ورتبيت كان يقول: روح بينهم وتكلم بكل ما يلهمك الله ولا تخف منهم ٠

ولمَّا بقي الى العيد جمعتان جاء من ديار بكر ثلثة قسوس اغنياء معلمين ومعهم اربعة شمامسة وجاؤوا نزلوا عندي في البيت وما كنت اعرف منهم الَّا شماسين وكانا من اصحابي وارادوا في المشي ان يسرقوا عقلي ٠ وكانوا كل يوم يقولون لحقارتي: يا حيف يا حيف عليك يا شماس وعلى علمك تميل الى تعاليم الافرنج الكاذبة الذين يغشون الناس في كل البلاد الذين ينكرون النور والميرون (١ والصليب وان قسوسهم لم يتزوجوا واعيادهم مخالفة لاعياد جميع الطوائف وليس عندهم صوم يأكلون السمك ويشربون الشراب في الصيام الكبير ويقدسون كل يوم من الصباح ويستنشقون التتون (٢ واذا مرض احدهم في الصوم الكبير يحللون عليهِ اكل اللحم ٠ فكنت اجاوبهم ولكل واحد منهم اعطيهِ جوابهُ ٠ وكانوا قد جاؤوا ليحضروا رتبة الميرون في دير الزعفران فلما كان يوم الاربعاء الكبيرة ليلة قداس الخميس وكان البطرك قد بعث وجمع الناس من جميع البلدان والقرى الى دير الزعفران مطارين وقسوس وشمامسة ورهبان وعامة رجال ونساء حتى يجوا ويحضروا الميرون وارسل ايضاً ودعا سيدنا ملكون ورتبيت وطائفتهُ فهو الوديع امتنع قائلًا: ما اروح لان اي شركة تكون بين بيعة المسيح وبيعة الشيطان واي خلطة بين النور والظلام فبعض من الخواجكية قالوا لهُ: روح في سبيل الفرجة ٠ فراح وراحوا معهُ جميع تلاميذه ورحت انا الحقير ٠ واذ نحن في الدير جاء واحد من اهل قلعة مرا (٣ واخبرني ان اهل الضيعة قد عزموا ان يقتلوا الورتبيت ويقتلوك ايضاً ٠ وكان هـذا الرجل صديقي فرحت اخبرت الورتبيت واخبرنا اولاد الكاثوليكيين

---

١) يريد بانكار النور ما يوقد من النور في السبت الكبير في كنيسة القبر في القدس ٠ وقد اثبتنا سابقاً انَّ ذلك النور ينسب زوراً الى العجائب ٠ وكذلك الميرون يزعم اليعاقبة انَّهُ اذا احضرهُ بطريركهم وباركهُ تكاثر وازداد على منوال عجيب كما سيأتي

٢) يشير الى استنشاق العطوس

٣) قلعة مرا قرية واقعة على مسافة ساعة من ماردين قريبة من دير الزعفران مركز بطرك اليعاقبة واهلها شديدو التمسك بالشيعة اليعقوبية

واخبروا هؤلاء جماعة الحاكم واستمع البطرك انهم دعوا اهل قلعة مرا وقالوا لهم: ان في هذه الليلة ايش ما صار نطالبكم به اتم فاحترزوا لان ما يخلصكم الّا الغرم والموت

ثم بدأُوا في الصلاة وصاروا يعيّطون ويزعّقون مثل كهنة بعل وكانت ليلة باردة طويلة وطوّلوا في الصلاة والعياط والورتبيت ينظر ويمجد الله والكاثوليكيون يتقوى ايمانهم اكثر واكثر فلمَّا اضاء النهار غطوا القبة على راس البطرك وبدأُوا يعلون اصواتهم وضجوا قائلين: طلع طلع فار فار الميرون . فلما ابصر سيّدنا الورتبيت هذه الامور بدأ يبكي ويهزّ راسهُ فقلنا لهُ: يا سيدنا ايش يبكيك. فقال: لماذا لا ابكي على قساوة قلوب هؤلاء القوم وعلى جهل هذا الخرفان الذي يطغي العالم ويغشهم ويكذب على الاسرار المقدَّسة ويدَّعي ذاتهُ باظهار العجائب والآيات وما يستحي ولا يخاف من عقوبة الله اذ يطغي العالم بهذا المقدار . فيما اولادنا الميرون هو حقًّا وهو السرّ الثاني من اسرار البيعة المقدَّسة وليس هو اعظم من القربان المقدس هل يقدر هذا البطرك الخرفان ان يضع في الصينيَّة برشانة واحدة وبصلاته يجعلها ان تصير ثلاثة ام اربعة او خمسة . قلنا: ما يمكن ذلك. فقال: كيف يقول هؤلاء ان الميرون يفور ويبقى خمسين يوماً او ازيد ويعلّون منهُ اربعين دنًّا وازيد اليس هذه زورًا وكذبًا . فقلنا لهُ: نعم من يصدّق هذا الكلام غير هؤلاء الجهّال والغشمة والعجائز . فقال: ماذا يجب على هذا الشقي الذي يغش اسرار الكنيسة ويغش عباد الله ويهلكهم . فقلنا لهُ: الله يهلكهُ مع حانان وقايافا تحقق انهُ شر منهم لان هؤلاء لاجل الحسد سلّموا المسيح الى الصلب وهذا يريد بالكذب والزعبرة ان يبطل تعليم البيعة المقدسة ويسلب اموال الناس ويعطيهم الى الحكام ليقيم هرطقتهُ ياخذ من موضع الذي ما لهُ عليهِ ويعطي موضع الذي لهُ عليهِ فخزاهُ الله مع معلمه ابليس الشرير

وبعد ذلك شاع هذا الخبر في المدينة والحنفاء بقوا يسألونا ويتهزأُون علينا ويقولون: كم دن ميرون ملأتم يا يعاقبة . فنقول لهم: ما نعرف اسأَلوا اهل قلعة مرا واشياء كثيرة غير هذه سجة يقذفونا بها التي ما نقدر نكتبها . وبعد ذلك بعث قنينة ميرون الى طائفة الارمن حتى يجمعوا لهُ مساعدة فجمعوا لهُ مقدارًا من الدراهم وكان عدد الارمن الهراطقة الذين يتبعونهُ ثلثين ويعتقدون بهِ انهُ قديس ويحلفون بصلاته . ثم بعد زمان ارتحل الى حلب ووضع مكانهُ مطرانًا وكيلًا وكان كرديًا شديد العناد ولم يكن يعرف

ينطق ولا كلمة عربي واوصاهُ قائلًا لهُ : بعد ما اروح لا تترك ابن الكزير يقرأ في البيعة فبعد شهرين ترلت حتى اقرا فزعق عليَّ بالكردي قائلًا : ما هي لازمة القراءة. فاغتظت منهُ وبطلت القراءة

وكان في قرية المنصوريَّة مفريان اسمهُ عازر منصوراتي الاصل وكان قد دار في بلاد المستوف والكرج وكان رجلًا خائف الله مسيحيًا محتنيًا لانهُ كان غنيًا ذا مال وكان يخاف على مالهِ من شر هؤلاء. فلما استمع بي دعاني الى عنده وصار بيننا وبينهُ عُشرة فقلت لهُ: لماذا ضيعت عمرك وانت خائف من هؤلاء الذياب الخاطفة. فقال: مالي احد ولا لي ظهر يسندني. فقلت لهُ: تصير بطرك فانا بقوَّة الله اعملك واجلب جميع اعيان البلد وتكون يدهم مع يدك. فرضي بهذا الكلام فجيت وتكلمت مع الورتبيت ومع خواجا اسحق وخواجا حنا فارسلوا اليه وجاء لبيت خواجا اسحق ثم جاء الى عندنا الى البيت وبقي عندنا عشرة ايَّام وعملنا لهُ غداء وجبنا الى بيتنا القاضي وابن المفتي وعشرة من اعيان اكابر الاسلام وحلفوا مع المفريان انهم يعطونهُ عرضحال ويعملوهُ بطركًا لما ياتي الحاكم الجديد. وشاع الخبر في البلدان ان شماس ايليا يريد ان يصيّر المفريان عازر بطركًا واستعبوا الهراطقة وامسكوا ساعيًا وارسلوهُ الى حلب ليخبر البطرك

فلمَّا سمع من خوفهِ اتى عاجلًا في الشتاء وارسل اناسًا الى استنبول ليسدُّوا الابواب اذ خاف من المفريان لانهُ كان صاحب مال كثير وصاحب بشرة وفصيحًا في اللسان التركي. ولما جاء البطرك ووصل الى ضيعة الابراهيمية ارسل مكتوبًا الى مريديه ومكتوبًا اخر الى حقارتنا مفردًا وفيه بركات وتحيات وتمليقات كثيرة وارسل لنا فرسًا وقال: مع وصول مكتوبنا لحضرتكم تركبون الفرس وتحضرون عندنا الى الابراهيمية لاننا اشتقنا اليكم

فلما قرأنا المكتوب قدام محبيهِ قلنا: انا اصحاب صنَّاع ودكان فما نطيق نروح ونترك شغلنا لكن لما يجي الى الدير نروح الى عنده. وقالوا: اكتب لهُ مكتوبًا. فقلت: ما اكتب اكتبوا انتم هكذا. فكتبوا فبعد ايَّام جاء الى الدير ودعاني فرحت الى عنده وكان قد اجتمع عندهُ اناس كثيرون من محبيهِ يعاقبة وارمن فاخذنا وأدخلنا الى القلاية ولم يترك احدًا ان يعبر سوى اثنينا اذ كان قد هيأ بجلوة سفرة من المواكيل. فبقيت اخاف

على نفسي وما اردت ان آكل ولا اشرب فشرب هو وسقاني غصباً ومن المآكل التي اكل اكلتُ انا . فقال لي : الخائن خائف فلماذا تخاف. قلت : انت تقول ان الخائن خائف؟ فبدأ يعاتبني قائلاً : يا شماس انت صرت افرنجياً ونحن ما خلينا خاطرك ولا منعناك من بيعتنا ولا من خدمتك ولا من قراءتك في الكنيسة وقلنا : انت مثل رفقتك فاي فكر جاءك حتى رحت صاحبت النصوراني وتريد تقيمهُ بطركاً فاقسم عليك بالله ايش بِرطلك هذا البلط حتى جبتهُ الى البيت وجمعت لهُ الاسلام واعطوهُ قراراً ان ينصبوهُ بطركاً وهذا شي كبير. فقلت : لهُ حاشا لي ان آكل برطيل لكن لمّا رحتَ الى حلب وجعلت هذا المطران رئيساً علينا اذ لم يعرف ولا حرفاً واحداً باللسان العربي ولا يقدر يتكلم كلمة الفرد قال لي بالكردي : ما لي رضى ان تقرا في البيعة . فصعب عليَّ ذلك . واقول الصدق اني مضيت وحرّكت هذه الحركة وليس لاحد ذنب الله عالم فلا تظنّ ان احد طغاني او علمني . حينئذٍ صفّق في يديهِ وحضر خادمهُ فقال لهُ : ازعق للمطران . فراح صاحهُ فلما جاء اليهِ بدا يخزيلهُ (يوبخهُ) قائلاً : انا قلت لك امنع هذا الشماس من القراءة في البيعة . فقال : يا ابونا ما قلت لي لكن يوم من الايام كان لنا شغل نريد ان نلمّ دراهم فقال لي الوكيل : قل لهُ : ان لا يكرز اليوم . فمنعتهُ . فقال لهُ البطرك : انتم تعملون اشياء وما تنظرون الى اخرها . حينئذٍ امرنا ان نتصالح مع المطران فتصالحنا وقمت جيت من عنده الى بيتي

وبعد ذلك بعث خلف المفريان عازر وجابهُ اليَّ وبدا يسقل معهُ ويبكي وقال لهُ : اي منصب تريد اعطيك انا فبالحق مـا انت لائق السكون في المنصورية ولكن الذي راح راح اغفر لي والآن لي عندك حاجـة تعال ارسلك كي تقضيها لان قد اخرجتُ فرماناً واريد ان ابني كنيسة في مدينة بدليس وانت قـد ابصرت تلك الاماكن وتعرف باللسان واهل تلك البلاد يعرفونك تعال روح ابني البيعة وارجع واذا جئت احلف قدام الله والملائكة والقديسين وقدّام هؤلاء الرهبـان اني اعطيك مطرنية حلب او دياربكر مهما اردت . فرضي المفريان بهذا الكلام وعاد الى المنصورية وبعث دعاني وحكى لي ما جرى لهُ مع البطرك فاغتظت من كلامهِ وقلت لهُ : لماذا اعطيت قراراً الى الخواجكية والى اعيان البلد . فقال : انا قراري ثابت وارسل ابن اخيهِ الى عند الذين اعطاهم القرار وعمل معهم هذه المشورة . فقال انا ثابت في قراري

ولما كان بعد أيام جاء الحاكم الجديد فلم يحسبهُ البطرك ولا راح الى عنده لكنَّهُ عمل مجمعاً في دير الزعفران وكتب اسماء كل السريان الذي لهُ بهم شك انهم قد صاروا مسيحيين (كاثوليك) وارسل جابهم الى المجمع وقال: اريد ان تعطوني حجة الى القاضي انكم يعاقبة من اتباعي والذي ما يعطيني حجة ولا يدخل بيعتي لا اعمد عماذهُ ولا ادفن ميتهُ واعرض امرهُ الى السلطان ليعمل معهُ مهما اراد لان امر السلطان هو هذا ان طوائف النصارى لا تخالط بعضهم بعضاً والذي يخالف امر السلطان يُقتل هو واولادهُ ويكون مالهُ لبيت المسلمين ايضاً ثم قال: ان جميع البنات المخطوبين من طائفة اليعاقبة الى طائفة الارمن يفكُّوهم ويردوا نيشانهم والذين اخذوا بنات من الارمن يفكُّوهم كذلك. وكانوا اكابر الارمن قد خطبوا لاولادهم بنات كثيرة من بنات السريان وكانوا ايضاً السريان قد خطبوا لاولادهم بنات الارمن. فصار عندهم حزن عظيم وبقوا متحيّرين (البقية لعدد آخر)

بايزيد الثاني والبابا اينوشنسيوس الثامن

نبذة تاريخية للاب لويس شيخو اليسوعي

روت جريدة المونيتور اورينتال الفرنسويَّة بنسبة ذكر الوفد المرسل من جلالة السلطان محمَّد الخامس الى قداسة الحبر الاعظم بيوس العاشر ليعلمهُ رسميًّا بجلوسهِ على اريكة اجداده السلاطين المظفَّرين من آل عثمان انَّ في مكتبة ميلانو من اعمال ايطالية صورة الكتاب الذي انفذهُ بايزيد الثاني الى البابا اينوشنسيوس الثامن وهو اوَّل كتاب من احد السلاطين الى الاحبار الرومانيين ثم وصفت ذلك الاثر قائلةً: انهُ مكتوب على رقّ وفي اعلاهُ طغراء السلطان مذهَّبة تذهيبًا ازرق واحمر. ارسلهُ على يد احد سفرائه مع الحربة التي طُعن بها جنب السيّد المسيح على الصليب وكانت وقعت في ملك آل عثمان بعد فتح القسطنطينيَّة على يد محمَّد الثاني والد بايزيد. امَّا الغاية من ارسال ذلك الكتاب وتلك الذخيرة انَّما كانت بيان رغبة السلطان في اطلاق سبيل الامير «جم» اخيهِ الاكبر الذي كان محبوسًا في قلعة الملاك المقدَّس

هذا ما روتهُ جريدة مونيتور اورينتال ونقلتهُ على علّاتهِ بعض جراندنا الحاليَّة التي عرَّبت ايضاً تلك الرسالة كما يأتي:

« من بايزيد الثاني ملك الملوك وسلطان البرَّين في اسيا واوربا بعناية الله الى المنسنيور اينوسان الاب السامي لجميع المسيحيين والرئيس العالي للكنيسة الرومانية »

« اكرام وحبّ صادق فاننا نحيط قداستكم علماً باننا قد ارسلنا لحضرتكم الجاويش قاسم احد رجالنا ليطلعنا على احوال صحتكم وليوطد بيننا صلات المحبة وقد زوَّدناهُ بالذخائر المقدسة التي جاءنا بها البريد عند عودته من سفرته وحفظها لنا المأمور (قبوجي باشى)

« وما ارسلناها لقداستكم الّا لما علمناهُ من البريد المذكور من انكم تجلُّون وتعظمون كثيراً الاشياء المقدَّسة التي تتعلّق بالنبي الالهي عيسى عليهِ السلام ولانهُ يوجد بخزائننا والحمد لله كثير من آثار الانبياء والقديسين وهذا ما دعانا ان نرسل الى قداستكم مع قاسم المذكور الحربة التي طعن بها (على ما يقال) اشرارُ اليهود المسيحَ عليهِ السلام

« فالمأمول ان قاسماً المذكور لا يتأخر كثيراً في الاوبة بعد ان يحظى بالقبول لديكم ويزور اخي بل ليعود الينا حاملاً اخباراً مطمئنة عن صحتكم وعن حالة اخينا ونفضلاً عن ذلك فاننا فوضناه بان يبدي لحضرتكم بعض الايضاحات وهو لا يقول الّا ما أُمر بهِ » . انتهى

فقد اعملنا النظر في هذا الاثر الجليل ورأينا في رواية الخبر عدَّة اشياء تحتاج الى اصلاح او شرح اوسع فكتبنا هذه النبذة الوجيزة عن اوثق المصادر فنقول :

انَّ السلطان محمَّد الثاني فاتح القسطنطينيَّة قبل وفاته في ٤ ربيع الاوَّل سنة ٨٨٦ هـ (٣ أيار سنة ١٤٨١) اوعز الى الصدر الاعظم واسمهُ قرماني محمَّد باشا بان يسلّم ازمَّة السلطنة من بعدهِ الى بايزيد ابنهِ الكبير دون الصغير المسمَّى جم . وكان بايزيد يوم وفاة والدهِ حاكماً على اماسيا امَّا جم فكان يحكم على بلاد قرمان فارسل الصدر الاعظم رسولاً الى بايزيد يعلمهُ بخلافتهِ على كرسي السلطنة لكنَّ قرماني

كان يفضل جم على اخيهِ لما يعرفهُ من فضلهِ وبسالتهِ فارسل اليهِ سرًّا يستدعيهِ ليستلم مقاليد الامور قبل اخيهِ ألّا ان الخبر شاع بعد قليل فثار جند الانكشارية على الوزير وقتلوهُ فصار الامر الى بايزيد. اما جم الاخ الاصغر فلم يخلد الى الراحة فانتشبت بين الاخوين حرب كانت فيها الدولة لبايزيد على اخيهِ ففرَّ جم هاربًا والتجأ الى فرسان القديس يوحنا الاورشليمي المعروفين بفرسان رودس وكان رئيسهم اذ ذاك بطرس دي اوبسون البطل الصنديد فخاف بايزيد ان يعضد هؤلاء الفرسان اخاهُ ودفع لهم مالًا على شرط لن لا يسلّموه الى اعداء الدولة العثمانية لئلا يستنجد بهم عليهِ. ففعلوا وبقي جم تحت حفظهم معزَّزًا مكرَّمًا وتنقّل برضاهم الى عدَّة مدن خوفًا من ان يبطش بهِ السلطان فيقتلهُ وسعى غير مرَّة ان يسمّه

ثم ثقلت وطأة السلطان بايزيد على الممالك النصرانية ودوَّخ اهلها وفتح ثغورها فرأى البابا اينوشنسيوس ان يجمع كلمة ملوك الفرنج لحارب العثمانيين وألحَّ على فرسان رودس حتى سلَّموهُ جم سنة ١٤٨٩ ونوى المتحالفون بان يحملوا السلطنة في يدهِ على شروط يقوم بها اذا ظفر بالملك فوعدهم جم واخذ الملوك يستعدُّون للحرب

فبلغ بايزيد ما يجريه الفرنج من الاستعدادات لمحاربتهِ فغاظهُ الامر جدًّا ولم يرَ وسيلة الى ردّ غارة الاعداء. ألّا ان يكتب الى البابا اينوشنسيوس الثامن ويستميلهُ بهبة نفيسة كان يعرف عظم شأنها لدى النصارى عمومًا ولدى ائمَّة الاحبار خصوصًا

وقد روى الكردينال بارونيوس في تاريخ سنة ١٤٩٢ (عدد ١٤ — ١٧) عن مؤرخين عيانين عاشوا قبلهُ بنحو خمسين سنة خبر الوفد السلطاني فقال: اتى بالرسالة والهدايا سفير سمَّاهُ (Chamisbuerch) (شمس بورش؟) فدخل على الحبر الاعظم في ١٩ أيار من السنة المذكورة واستقبلهُ البابا بما يليق لمثله من الاكرام. وكان السلطان كتب الى الحبر الاعظم رسالتين كلتاهما باليونانية يقول في الاولى ان رئيس فرسان رودس اعلمهُ بتسليم اخيهِ الى الحبر الروماني فيطلب من قداستهِ ان يبقيهُ في حراستهِ كما اتُّفق مع الفرسان المذكورين امَّا هو فلا يزال على حفظ الوداد نحو الكرسي الرسولي. ويصف السلطان في الرسالة الثانية حسن معاملتهِ لنصارى الشرق وانهُ كفَّ عن محاربة دول الفرنج. فهاتان الرسالتان اودعتا في خزانة المكتبة الواتيكانية حيث كانتا موجودتين على عهد بارونيوس في صوانٍ موسوم بحرف C تحت العدد ٣٣ والصفحة

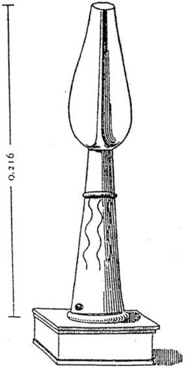
١٦٢ . ولعلّ الرسالة الاولى هي الرسالة التي نشرتها جريدة مونيتور اورينتال ولا نعلم كيف نُقلت الى مدينة ميلانو وهل هي مكتوبة باليونانيّة او بالتركيّة

امّا الذخائر المرسلة الى الحبر الاعظم فقد ذكر جاك بوزيوس المؤرخ انها كانت متعدّدة اخصّها حربة الجندي التي طعن بها جنب المخلص في الآلام كما ذكر القديس يوحنّا في انجيله ثم الاسفنجة التي قرّبها الحرس من فمه الكريم وهو على الصليب مع القصبة المعلّقة بها الاسفنجة وذخائر بعض القديسين . فهذه الذخائر لم يكرمها الحبر الاعظم والكرادلة الّا بعد أن وكّل الى بعض علماء رومية بفحصها والبحث عن صحّتها فقضوا في ذلك ١١ يوماً فلمّا تقرّرت لهم صحّة تلك الآثار اقيمت لاكرامها حفلة عظيمة في يوم الخميس ٣١ أيار من السنة فنقلها الحبر الاعظم بابهة ورونق الى كنيسة اغلال مار بطرس . ومن عجيب الاتفاق انّهُ وجد قبل ذلك بشهرين في ١٢ اذار في احدى قناطر كنيسة الصليب الاورشليمي في رومية صندوق من رصاص عليه عدّة ختوم ففتحوها فاذا فيه عنوان الصليب المقدّس « يسوع الناصريّ ملك اليهود » وكان العملة وقفوا عليه وهم يرمّمون تلك الكنيسة المبنيّة على عهد قسطنطين

وقد تأثر البابا اينوشنسيوس من تلك المظاهرات الوديّة واراد ان يبيّن للسلطان شكره ويؤكد لهُ رغبته في السلام وحفظه للعهود لكنّ الموت عاجلهُ في ٢٥ تموز من السنة عينها ١٤٩٢ فوقع جم في ايدي خلفه اسكندر السادس من اسرة بورجيا فابقاهُ تحت حوزته مدّةً حتى اضطرّهُ ملك فرنسة كرلوس الثامن على دفعهِ لهُ فدفعهُ في ١٥ شباط سنة ١٤٩٥ فرافق الامير الجنود الافرنسيّة حتى بلغ الى نابولي وفيها توفي عند وصوله في ٢٤ شباط ١٤٩٥ وقيل انهُ مات مسموماً والروايات متباينة في سبب موته وكان جم مدّة اقامته في روميّة ساكناً في القصر الواتيكاني الّا انهُ في آخر أيّام اينوشنسيوس واوّل عهد خلفه نُقل الى الحصن المعروف بالملاك القديس

وان سألنا احد عن الذخيرة التي ارسلها السلطان بايزيد الى البابا وما يُعرف عن صحّتها ، اجبنا ان اقدم شاهد تاريخي يروي ذكر الحربة التي طُعن بها السيد المسيح هو احد زوّار اورشليم في دليله على الاراضي المقدّسة اسمهُ انطونينوس المعروف بالشهيد في سنة ٥٧٠ للمسيح رآها في كنيسة جبل صهيون . وفي اوائل القرن التالي استعرت في بلاد فلسطين وبلاد الشام نيران الحرب بين الفرس وملوك القسطنطينية ثم بين العرب

وبينهم فخرجت بلاد الشام عن حكم ملوك بوزنطية فكثير من ذخائر اورشليم الثمينة نُقلت الى القسطنطينيَّة لئلَّا تبقى معرَّضة لاهانة غير المؤمنين وكانت الحربة من جملة هذه الذخائر. واخر من رآها في اورشليم الزائر الفرنسوي اسطفان أركلف نظرها سنة ٦٧٠ في كنيسة القبر المقدَّس. امَّا الزوَّار الذين أتوا بعدهُ فلم يذكروا تلك الذخيرة في القدس الشريف بل يجعلونها في جملة الذخائر المكرَّمة في القسطنطينيَّة وشهادتهم متواصلة الى الفتح القسطنطيني فتكون تلك الحربة التي اهداها السلطان هي نفسها الذخيرة الاورشليميَّة وهي اليوم من ذخائر رومية الخطيرة (وهذه صورتها)



صورة الحربة المقدَّسة في رومية

وما يزيد هذه الرواية صحَّة انَّ الزوَّار يتفقون في وصف الحربة فيقولون انَّ سنانها الرفيع اي نَصل رأسها هو مكسور (كما ترى في صورتها) ولهذا السنان خبر متواتر يرتقي الى القرن السابع فانَّ الفرس لمَّا فتحوا اورشليم سنة ٦١٤ وضبطوا كل جواهر خزائنها واخذوا الصليب المقدَّس الذي كان فيها وجدوا ايضًا هذا السنان مكسورًا فطلبهُ ألكنت نيكيتاس ونالهُ من احد ضبَّاطهم فنقلهُ الى القسطنطينيَّة كما اخبر صاحب التاريخ الفصحيّ (Chronicon Paschale) في اخبار تلك السنة. فبقي السنان في

القسطنطينية الى ان فتحها الفرنج سنة ١٢٠٤ فاهداه ملكهم بغدوين لملك فرنسة القديس لويس التاسع فجعلهُ القديس مع ذخيرة الاكليل المقدَّس في كنيسة شيَّدها لهذه الغاية وبقي السنان في تلك الكنيسة الى الثورة الفرنسويَّة ففُقد . ويقال انَّ هذا السنان عُرض قديمًا على الحربة التي في رومية فوُجد على قياسها تمامًا

هذا ما لخَّصناهُ عن مقالة واسعة كتبها احد كبار الاثريين الكنت دي ميلي (F. de Mély) في جريدة الصناعة المسيحيَّة (Revue de l'Art chrétien. 1877)

وهناك تفاصيل على حربات أُخرى مقدَّسة تُكرم في بعض البلاد كالحربة الموجودة في كنيسة اجميازين الارمنيَّة الغريغوريَّة والحربة المكرَّمة في ڤيانَّة عاصمة النمسة والحربة التي اكتشفها الصليبيُّون في انطاكية (اطلب تاريخ الدول لابي الفرج ابن العبري طبعة الاب انطون صالحاني ص ٣٤١) وما يوجد من العلاقات بين هذه الآثار . فنكتفي بالاشارة اليها خوفًا من الاطالة

امَّا الاسفنجة المقدَّسة فان ذكرها قليل في الروايات التاريخيَّة فيصعب بيان صحَّتها وليس ببعيد انَّ ملوك الروم الذين كانوا يحرصون على مثل هذه الذخائر اتوا بها من القدس الشريف والله اعلم

عهود نبيّ الاسلام والخلفاء الراشدين للنصارى

نظر انتقاديّ للاب لويس شيخو اليسوعي

انَّا في اسفارنا المتعدّدة الى الشام ومصر وما بين النهرين والعراق والهند كما ايضًا في مطالعاتنا المتواترة في خزائن كتب اوربة الفنيَّة بالآثار الشرقية كباريس ولندن وروميه وليدن كثيرًا ما كنَّا نقف على نسخ معاهدات كتب بعضها — كما قيل — نبيّ الاسلام الى فرق النصارى ويُنسب بعضها الآخر الى الخلفاء الراشدين ولاسيما ابا بكر الصديق وعمر بن الخطَّاب فكنَّا نسرع الى نقل تلك الآثار لنجد فيها من اسباب الأُلفة والاتحاد بين اهل الاوطان على اختلاف الاديان . حتى حصل لنا منها بضع عشرات وكانت غايتنا ان ننشر يومًا تلك الآثار اذا ما سادت حرّيَّة المطبوعات اذ علمنا حق العلم انَّ الحكم السابق كان يرى في تلك الابحاث خطرًا وهمًا لا ندري ما هو

ولمَّا أُعلن بالدستور في العام الماضي عدنا فوجَّهنا الالحاظ الى تلك الآثار فامعنَّا فيها النظر وقابلنا بين النسخ التي حصلنا عليها فاذا بعضها يختلف عن البعض الآخر في المعاني والالفاظ والزيادة والنقصان مع استقائها من مورد واحد ورجوعها الى مصدر فرد لم يمكننا ان نقف عليه. فبقينا مرتابين في الامر لا يسعنا ان نحكم فيه حكمًا فصلًا. وبينا نحن نطلب للمشكل فضًّا وللعقبة ممرًّا اذ ارسلت بطركخانة الارمن الكاثوليك في الاستانة نسخةً من عهد آخر نشرته في دار السلام الجرائد الارمنيَّة فاوردتهُ جريدة الاحوال في عدد ٤٨٩٣ الصادر في ٢٦ شباط من السنة الجارية

وما لبثت مجلَّة روضة المعارف بعد زمن قليل حتى روت في عددها الثالث عشر من سنتها الاولى (ص ٢٨٩ — ٢٩٥) عهدة محمديَّة اخرى للملَّة النصرانية صدَّرتها بكلام لطيف تحضُّ فيه العناصر العثمانيَّة على الوفاق والاتحاد عنونتها بهذا العنوان «لا خوف ممَّا يتوهَّمون» فاسرعت الجرائد المحليَّة الى نقلها. وها نحن نثبتها قبل ان ننتقد على صحَّتها (١

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذه صورة العهد والميثاق والشروط التي شرطها محمد رسول الله صلَّى الله عليهِ وسلَّم لاهل الملَّة النصرانية وعليهم وللرهبان والاساقفة باملائه لماوية بن ابي سفيان يومئذٍ بشهادة الصحابة ممن حضر المكتوبة اسماؤهم ادناه وكُتب بالمدينة عام تاريخهِ بذيله):

«كتبه محمد رسول الله الى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا على وديعة الله في خلقه لتكون حجة الله سجل دين النصرانيَّة في مشرق الارض ومغربها وفصيحها واعجمها وقريبها وبعيدها ومعروفها ومجهولها كتابًا جعلهُ عهدًا مرعيًّا وسجلًّا منشورًا ووصية منهُ

---

١) ولعلَّ هذه النسخة هي التي رأيناها في بيت احد وجوه الروم الكاثوليك في البلدة كُتبت كتابةً بديعة بنقوش والوان تاريخها من نيّف ومائتي سنة

تقيم فيه عدله وذمّة محفوظة فمن رعاهـا كان بالاسلام متمسكا ولما فيه متأهلا ومن ضيّعها ونكث العهد الذي فيها وخالفهُ الى غير المؤمنين وتعدّى فيه ما امرتُ به كان لعهد الله ناكثًا ولميثاقه ناقضا وبدينه مستهينًا سلطانًا كان او غيره من المؤمنين او المسلمين

« وقد بدأتُ بالعهد على نفسي والميثاق الذي يسألون عني وعن جميع اهالي الكاملين من المسلمين بان اعطيهم عهد الله وميثاقه وذمة انبيائه ورسله واصفيائه واوليائه من المؤمنين والمسلمين في الاوّلين والآخرين وذمتي وميثاقي اشهـد ممّا اخذ الله على نبيٍّ مرسلٍ او ملكٍ مقرَّب من حق الطاعة وايتاء الفريضة والوفاء بعهد الله ان احوط قاصيهم في ثغوري بخيلي ورجلي واعواني واتباعي من المؤمنين في كل ناحية ونواحي العدوّ بعيدًا ام قريبًا سِلمًا كانوا ام حربًا وان اؤمنهم واذبُّ عنهم وعن كنائسهم وبيعهم ومصلّاهم ومواضع الرهبان منهم ومواطنهم اي مقرّ السياحة حيث كانوا واين كانوا برًّا وبحرًا في شرقٍ او غربٍ في جبل او وادٍ او مغارة او عمران او سهـل او رمل او بناء. واحوط دينهم وملكهم حيث كانوا واين كانوا بما احوط به نفسي وخاصتي واهل ملّتي من المؤمنين والمسلمين وان أُدخلهم في اماني من كل اذى ومكروه ومؤونة وتبعة. وان أكون من ورائهم رادًّا عنهم كل عدوّ يردني واياهم بنفسي واتباعي وأعواني واهل ملتي وانا ذو سلطة عليهم وبذلك يجب عليَّ رعيهم وحفظهم من كل مكروه. وان لا يصل اليهم حتى يصل الى اصحابي الذابّين عن نصيب الامر. وان اعزل عنهم الاذى في المواد التي تحمل اهل العهد من العارية والخراج الّا ما طابت به انفسهم ولا يكن عليهم جبرٌ ولا اكراه في ذلك. ولا يُنفى اسقف من اسقفيته ولا نصراني من نصرانيته ولا راهب من رهبانيته ولا عن سياحته ولا راهب عن صومعتـه ولا يُهدم بيت من بيوت كنائسهم ولا يدخل شيءٌ في بناء المساجد ولا في منازل المسلمين. فمن فعـل ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسول الله وخان ذمة الله

« وان لا يحمل الرهبان ولا الاساقفة ولا جميع من لم يلزم بشنـه الّا ان تطيب بذلك انفسهم وان لا تجاوز الجزية على اصحاب التجارات العظـام في البحر والغوص واستخراج معادن الجوهر والذهب والفضة وذوي الاموال الجمة والقوة ممّن انتحل النصرانية اكثر من اثني عشر درهمًا في كل عام اذا كان اهل الموضع قاطنين به

مقيمين. وانهُ ليس على عابر سبيل ولا قاطن البلد ولا اهـل الاحسان ممن لا يُعرف موضعهُ الخراج ولا الجزية الّا ان يكون في يده ميراث الارض ممن يجب عليـه مال السلطان من حق فيؤدي ذلك على ما يؤدي مثله ولا يتجاوز عليه ولا يتحمّل منهُ الّا مقدار طاقته وقوته دون يجوز الارض وعمارتها واقبال ثمرها لا يُكلّف شططاً ولا يجاذُ به عن حدّ اصحاب الخراج من نظرائه. ولا تكلّف اهل ذمة الخروج مع المسلمين الى عدوّهم وملاقاة الحرب ومكاشفة الاقران لانهُ ليس على اهل الذمة مباشرة القتال وانما أُعطوا الذمة ان لا يكلّفوا ويكون المسلمون ذُبّاباً عنهم محرزين من دونهـم ولا يُكرهون على الخروج مع المسلمين الى الحرب التي يلقون فيها عدوّهم ولا بقوّة من سلاح وخيل الّا ان يتبرعوا به اليهم فيحمل على ذلك من تبرع به وعرف له ذلـك وكُفي عليه (؟)

« ولا يُجبر عليه احد ممن كان على ملة النصرانية من الاسلام كرهاً ولا يجادل الّا بالتي هي احسن ويخفض لهم جناح الرحمة ويُكفّ عنهم الاذى والمكروه حيث كانوا واين كانوا. وان جرّ احدٌ من النصارى جريرة او جنى جناية فعلى المسلمين نصره ومنعهُ والذبُّ عنهُ والغرم عن جريرته والدخول في الصلح بينه وبين ما اصاب منا عليه واماً فداه ينادى به ولا يخذلون ولا يرفضون ولا يتركون مهملاً على اني اعطيتهم عهد الله انّ لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وللمسلمين ما لهم وعلى المسلمين مـا عليهم بالعهد الذي استوجبهُ حقّ الرعاء والذّب عن الحرمـة به استوجبوا ان يذبّ عنهم كل مكروه ويدخل لهم في كل مرفق حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم. وان لا يحـل من امر النكاح شططاً لا يراد دونهم ولا يكرهوا اهل البنت منهم على تزويج المسلمين ولا يضادوا في ذلك ان منعوا خاطباً او ابوا تزويجاً فان ذلك لا يكون الّا بطيب انفسهم ومسامحة اهوائهم ان احبّوه ورضوه. واذا صارت النصرانية عند (عند) المسلم فعليه ان يرضى هواها في دينها من الاقتداء برؤسائها والاخذ بمعالم دينها ولا يمنعها في ذلك ولا يكرهها على تركها ولا يضادها في رفض دينها وان فعل ذلك واكرهها عليه فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله وهو عند الله من الكاذبين. ولهم ان احتاجوا الى مرمّة كنائسهم او صومعتهم او شيء من مصلحة دينهم الى رفد من المسلمين او معونة على مرمّته ان يُرفدوا على ذلك ويعاونوا ولا يكون ذلـك ديناً بل

معونةً لهم على مصلحة دينهم ووفاء لهم بعهد رسول الله هبة وموهبة لهم ذمّة الله وذمة رسول الله عليهم ولهم ولا يُكره احد منهم ان يكون بين المسلمين ولهم عدوٌ وقالوا له كن رسولًا او دليلًا او مسخرًا او في شيء مما يقوم الحرب فمن فعل ذلك باحد كان ظالمًا ولرسول الله عاصيًا ولوصيته مخالفًا

« هذه الشروط التي شرطها محمد رسول الله لاهل الملة المسيحية وشرط عليهم في دينهم امورًا وفي ذمتهم عليهم التمسك بها والوفاء بما عاهد عليهم . منها ان لايكون احد منهم معينًا لاحد من اهل الحرب على احد من المسلمين في سرّ ولا في علانية ولا يوقى في منازلهم عدوٌ لمسلم ولا ينزل اوطانهم ولا شيءٍ في مساكن عبّادهم ولا غيرهم من اهل الملة . ولا يرفدوا احدًا من اهل الحرب على المسلمين بقوّة من عارية السلاح ولا الخيل ولا الرجال ولا يستودعوا لهم مالًا ولا يكاتبوهم ولا يضيفوهم الّا ان يكونوا في دار بقية يذبون فيها عن انفسهم وعن دمائهم ورعاية دينهم . ولا يمنعوا احدًا من المسلمين قرى ثلاثة ايام ولياليها لانفسهم ولدوابهم حيث كانوا وحيث ارادوا ويبذلون منهُ القرى الذي منهُ يأكلون ولا يكلّفوا زيادة عن ذلك فيحملوا الاذية عليهم والمكروه . فان احتيج الى اختفاء احد المسلمين في منازلهم وموطن عمارهم ان يودُوهم ويرفدوهم ويواسوهم عمّا شق به ما كانوا مختفين اذا كتموا عنهم ولم يظهر العدو على عورتهم ولم يبخلوا بشيء من الواجب عليهم . في ذلك فمن نكث منهم شيئًا من هذه الشروط وتعدّاها الى غيرها بريء من ذمة الله وذمة رسوله

« عليهم بتلك العهود والمواثيق التي اخذت على الاحبار والرهبان والنصارى من اهل الكتاب واشهد على امته من الايمان والوفاء بذلك اين كانوا وحيث كانوا وعلى رسول الله الوفاء بما جعل لهم على نفسه وعلى المسلمين رعاية ذلك لهم ومعهم به حتى تقوم الساعة وتنقضي الدنيا . واشهدوا (؟) على هذا الكتاب الذي كتبه محمّد رسول الله بين النصارى الذي اشترط عليهم وكتب لهم هذا العهد:

ابو بكر الصديق . عمر بن الخطاب . عثمان بن عفان . عليّ بن ابي طالب . ابو معاوية بن ابي سفيان . ابو درداء . ابو ذر ابو برده . عبد الله بن مسعود . عبد بن العباس . حمزة بن عبد المطلب . فضيل بن عباس . الزُبير بن العوام . طلحة بن عبد الله . سعد بن معاذ . سعد بن عبادة . ثابت بن قيس . يزيد بن ثابت . عبد الله بن يزيد . حرفوش . زيد بن ارقم . أساف بن بريد .

سهل بن بيضاء · عثمان بن مظعون · داود بن جبير ابو العالية · عبد الله بن عمر · العاصي ابو حنيفة · ابن عسير · ابن ربيعة · عمّار ابن ياسر · هاشم بن عصيه · حسن بن ثابت · كعب بن كعب · كعب بن مالك · جعفر بن ابي طالب · (رضوان الله عليهم جميعهم)· كتبهُ معاوية بن ابي سفيان باملاء رسول الله يوم الاثنين في ختام اربعة اشهر من السنة الرابعة من الهجرة بالمدينة (على صاحبها افضل السلام) وكفى بالله شهيدًا على ما في هذا الكتاب والحمد لله رب العالمين

✡

فهذه هي العهدة التي روتها روضة المعارف وكان من شأنها ان تُصدّرها بكلام وجيز تثبت فيه اصلها وتشير الى قدمها وتنفي عنها كل شبهة التقليد كما اعتاد ذلك الاثريون وكما يفعل كتبتنا كلَّما نشروا اثرًا قديمًا في المشرق. امَّا الروضة فآثرت السكوت عن هذه الافادات ويا ليتها لم تفعل فاضطرَّتنا الى هذا البحث الانتقادي فنقول: انَّ هذا العهد من الآثار المصنوعة التي لا يمكن اثباتها الى نبيّ الاسلام وغاية ما نتمنّى أن يقوم بين المسلمين احد العلماء فيبطل زعمنا فنقرّ بغلطنا شاكرين لفضل المنتقد. امَّا الاسباب التي تحدو بنا الى جحود هذا الأثر فهي الآتية:

اولًا راجعنا كتاب ابن سعد في كتب النبيّ ووفاداته وهو اقدم ما ورد في هذا المعنى وكان ابن سعد كاتبًا للواقدي في اواخر القرن الثاني للهجرة فنقل في كتابهِ ما وقف عليهِ في كتب اسلافهِ الضائعة كابن الكلبي والمدائني. فلم يروِ انَّ محمَّدًا كتب عهدًا للملَّة النصرانية اجمالًا او لاحدى طوائفها المعروفة في عهدهِ كالملكيَّة او النسطوريَّة او اليعقوبيَّة. فكفى بسكوتهِ دليلًا على انَّ هذا الاثر كان مجهولًا في وقتهِ لا يعرفهُ المسلمون

ثانيًا كذلك لا ذكر لهذه العهدة في السير المحمَّديَّة واخبار الرسول التي كتبها المسلمون كابن هشام وغيرهِ ولو كانت هذه العهدة صحيحة شائعة الذكر عرفها اصحاب محمَّد وانصارهُ ووقَّعوا عليها اسماءهم كما يقال لمَا فات امرُها اولئك الكتبة ما لم يزعم الزاعم انَّهم اخفوا امرها قصدًا وهي تهمة لا يجوز التعريع بها الَّا بالدليل

ثالثًا ومثلهم المؤرخون الاقدمون كالطبري وكتبة الفتوحات والمغازي كالازدي والبلاذري وكلُّهم يظهرون التدقيق فيما يروون ويثبتون اقوالهم بالاسانيد المتواترة فلا احد منهم ينوّه بميثاق اعطاهُ رسول الاسلام للملَّة النصرانية جمعاء

رابعًا بل لا ينطبق هذا العهد مع احوال نبيّ الاسلام فانَّهُ لمَّا توفي في السنة

العاشرة للهجرة لم تكد العرب تخرج من حدود جزيرتهم فانَّ الفتوحات الكبيرة كالشام ومصر والعراق والعجم انما جرت في زمن خلفائه فلا يقبل العقل السليم والاعتقاد الصادق انَّ محمدًا يكون كتب مذ ذلك الحين « سجل دين النصرانيَّة في مشرق الارض ومغربها وفصيحها واعجمها وقريبها وبعيدها ومعروفها ومجهولها كتابًا جعلهُ عهدًا مرعيًا وسجلًا منشورًا الخ » لكل بلاد النصرانية وكثير منها لم يدخلها العرب

خامسًا وزد عليهِ انَّ الكتب المرويَّة عن نبيّ الاسلام كلَّها موجزة قليلة الالفاظ بخلاف هذا العهد الذي اتَّسع فيهِ الكاتب وفصَّل تفصيلًا زادنا ريبًا في صحَّتهِ

سادسًا ولنا دليل آخر على عدم صحَّة هذا الأثر وهو أنَّنا لا نجد لا في معاهدات الخلفاء مع النصارى ولا في براءات السلاطين اليهم ما يدلّ على معرفتهم بهذا الأثر الجليل ولو عرفوهُ لأشاروا اليهِ لا محالة وبنوا عليهِ معاهداتهم وما خالفوهُ في مضامينهِ في معاملاتهم للنصارى . وكل ذلك ينقضهُ التاريخ

سابعًا ومن الادلَّة المثبتة لقولنا انَّ نسخ هذا العهد التي اطَّلعنا عليها مع كثرتها حديثةٌ لا يتجاوز عهد كتابتها ثلثمائة او اربعمائة سنة ولو كان أصلها يرتقي الى اوائل الاسلام لحفظت كأثر نبويّ وذخيرة ثمينة في خزائن السلاطين فوصفها الاثريون وصفًا مدققًا

ثامنًا ويظهر من المقابلة بين النسخ الباقية الى يومنا بانَّ هذا العهد مصنوع . ولبيان هذا الامر قطعيًا كان ينبغي لنا ان نثبت هنا تلك الصور المتعدّدة التي حصلنا عليها فيرى القرَّاء ما فيها من الاختلاف الّا انَّ هذا يطول بنا ويقتضي صفحات عديدة من المجلَّة فنكتفي بايراد مقاطيع من بعضها دلالةً على قولنا . فمن هذه العهود عهد وجدناه في بعض مخطوطات مكتبتنا قيل في آخره انهُ خُطَّ عن احدى النُّسخ الثلاث « التي كتبها عليّ بن ابي طالب باملاء محمَّد الرسول سنة اثنين بعد الهجرة » واحدى النسخ في خزينة السلطان والثانية بدير الطور في سينا والثالثة في ايدي رهبان جبل الزيتون (١ فهذا اوَّلهُ :

هذا عهد الله لكافة النصارى ولسائر الاماكن النصرانية حفظًا منّا ورعاية لنجاحهم لاثمهم ودينهم

---

١) وقد وجدنا في تاريخ الكنيسة الانطاكية للخوري ميخائيل غبريل نصًّا قريبًا منهُ (ج ١ : ٥٨٨)

الله بعده في خلقهِ ليكون حجّةً لهُ عليهم ولا يكون للناس حجّةً على الله بعده وجعل ذلك ذمّةً منهُ وحفظًا لامر الله العزيز الحكيم كتبهُ وامر سائر المولّين الامور من اهل ملّتهِ بعده ان يتلوه ويعملوا بهِ كل من انتحل دين النصرانية ودعوا بها من مشرق الارض ومغربها وقبليها وبحرها وقريبها وبعيدها وعربيّها وعجميّها ومعروفها ومجهولها عهدًا منهُ وسنّةً لهم ليحفظوها ويراعيها كل المتولين الامور ممّن هو بالامور متمسكًا ولطاعة الآمر تابعًا ومستأملًا ومن نكثها وتعدّاها وخالفها وضيّع عهد الآمر بهِ وغيّرهُ وفعل بخلاف ما رسم بهِ الآمر كان لعهد الله ناكثًا ولميثاقهِ ناقضًا وبذمتهِ مستهينًا وللعنتهِ مستوجبًا …

وهكذا بقيّة العهد يتّفق مع نصّ روضة المعارف في اشياء ويختلف في اشياء فيظهر انّ النسّاخ تصرّفوا في الكتاب كيفما شاؤوا حتى لا تكاد تجد سطرين ينطبق واحد. وكذلك اسماء المسجلين تختلف وفيها التقديم والتأخير والتصحيف والتحريف

ولدينا نسخة اخرى من هذا العهد اقدم من السابقة نقلناها عن كتاب مخطوط يرتقي عهدهُ الى القرن الثالث عشر فيهِ تواريخ النصارى لاحد النساطرة. وهذا الكتاب قد باشر بنشره رئيس اساقفة سعرت السيّد ادي ابرهينا شير الكلداني الجزيل الاحترام فهناك يقال انّ ثلاثة من اصحاب محمّد طلبوا منهُ سجلًا يكون كعهدٍ للسيّد بن الحارث بن كعب صاحب نجران ولجميع اهل النصرانيّة فكتب لهم هذا العهد وهو يُشبه العهدين السابقين في اشياء ويخالفهما في غيرها. دونك اوّلهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب كتبهُ محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله الى الناس كافةً بشيرًا ونذيرًا ومؤتمنًا على وديعة الله في خلقهِ ولئلّا يكون للناس على الله حجّةً بعد الرسل والبيان وكان الله عزيزًا حكيمًا

للسيد بن الحارث بن كعب واهل ملّتهِ ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية في شرق الارض وغربها الخ

وهذه قطعة من هذا الاثر القديم تقارب نص روضة المعارف وتصلحهُ في اشياء:

وانا أُدخلهم في ذمّتي وميثاقي واماني من كلّ اذى ومكروه ومؤونة وتبعة وان اكون من ورائهم ذابًّا عنهم كلّ عدوّ يريدني واياهم بسوء بنفسي واعواني واتباعي واهل ملّتي وحفظهم من كل مكروه ولا يصل ذلك اليهم حتى يصل اليّ واصحابي الذابين عن بيضة الاسلام وان اعزل عنهم الاذى في المؤن التي يحملها اهل الجهاد من الغارة (كذا) والخراج الّا ما طابت بهِ انفسهم وليس عليهم اجبار ولا اكراه على شيء

وعندنا صورة رابعة للعهد المحمّدي ينتحلها اليعاقبة فيزعمون انّ محمّدًا اعطاها

جبريل مطران الطائفة السريانيـة لهم ولنصارى الاقباط. ونسختنا منقولة عن نسخة خطيَّة كوفيَّة تُنسب الى معاوية محفوظة في دير السريان اليعاقبة الشهير المسمَّى بدير الزعفران بقرب ماردين تبتدئ هكذا :

بسم الله الرحمن الرحيم . نسخة العهد الموهوبة من نبي الله محمَّد لطوائف النصارى القبط والسريان اليعقوبية بمصر واقاليمها وفي كل مكان من اقطار الارض . هذا عهد مني الى سكان جميع النواحي من السريان والقبط حفظاً لميثاقهم ورعاية لاجل الله عزَّ وجل لانهم وديعة الله في ارضهِ ومحافظين لما انزل عليهم في الانجيل والزبور والتوراة لا يكون لهُ الحجَّة عليهم من قبل الله تعالى وصيةً منهُ وحفظاً عليهم بامر الله العزيز الحكيم اذ امر معاوية بقولهِ : اكتب لهم هـذا العهد ني ليطالبوا عليهِ سائر السلمين والمتولين للحكم من الامراء والوزراء والسلاطين والعلماء والفقهاء من الملة الاسلامية العاملين بوصيتي . . .

ثم يتبع نص العهد كما في العهود السابقة مع اختلافات عرضية في العبارة وبعض ايضاحات وزيادات . وهذا مثال منهُ نأخذهُ من ختام العهد :

ومن خالف شيئاً من هذه فقد خان عهد الله وميثاقهُ وما امرنا به كان لهُ ناسخاً ومخالفاً (؟) وقد صار بيد الرهبان امانةً مني اليهم ان لا يكون عليهم مكروه ولا مظلمة اينما كانوا واينما حلُّوا في المدن والقرى لما قرَّرت لهم عليَّ وعلى جميع المسلمين من الرعاية بهم والرأفة والاحسان والرحمة والعناية بهم والوفاء بما ذكرناهُ من العهد الذي عهدناهم بهِ الى انتهاء الدنيا ليوم القيامة ولا احد من امتي يتعارض للنصارى بسبب ضرب الناقوس لانَّ الناقوس ضُرب بسفينة نوح نبيّ الله عليهِ السلام ومن نقض وعمل بخلاف الشروط ولا سمع كلامي وظلم ذمياً اكون خصمهُ يوم القيامة . . . .

امَّا العهـد الذي يقال انَّ محمَّداً عاهد بهِ الارمن فانَّ صورتهُ قريبة من صورة العهد اليعقوبي السابق ذكرها الَّا في بعض قطعهـا ولا حاجة الى نقل شيء منها بعد ان نشرتها جريدة الاحوال

تاسعاً ثم انَّ في اسم كاتب هذا الاثر المصنوع دليلاً آخر على كذبهِ فانهُ يقال ان كاتبهُ معاوية بن ابي سفيان في السنة الرابعة من الهجرة في المدينـة . ومعاوية لم يرافق نبيَّ الاسلام الى المدينة وانَّما بقي معادياً لمحمَّد الى يوم الفتح اي السنة الثامنة للهجرة فاسلم مع ابيهِ فكيف امكنهُ ان يكتب لمحمَّد وهو ليس من اصحابهِ بل عدوّاً لهُ

عاشراً وكذلك اسماء الموقّعين على هذا العهد فبعضها مصحَّف كحسن بن ثابت يريدون حسَّان الشاعر . وبعضها لاصحاب كانوا ماتوا في الوقائع السابقة كحمزة . وبعضها

ممن لم نجد لهم ذكرًا في كتاب أسد الغابة لابن الاثير وتهذيب الاسماء للنووي كاساف ابن يزيد

حادي عشر واخيرًا يبطل صحّة هذا العهد تاريخهُ الهجري فانَّ هذا التاريخ لم يستعمل الَّا بعد وفاة محمد

لا نظنّ بعد هذه البراهين المتعددة انهُ يبقى لاحد ريب في كذب هذا العهد وان سُئلنا عن واضعه اجبنا انَّ صاحبهُ مجهول ولعلَّهُ احد رهبان النساطرة في القرن العاشر صنَّفهُ مقلّدًا فيهِ بعض اقوال محمّد والخلفاء الراشدين ترويجًا لبضاعتهِ ثم انتحى بهِ غيرهُ وخصُّوا العهد بطوائفهم وتصرَّفوا فيهِ

ومن المحتمل انَّ رهبان طور سينا كانوا اوَّل من اخذ عهدًا من نبيّ المسلمين لما ادَّوهُ لقومهِ من الخدم في بعض غزواتهم. وممَّا يُخبَر انَّ السلطان سليمًا بعد فتح مصر وجزيرة العرب وقف على عهد بالكوفية زعم الرهبان انهُ من محمد فاستوهبهُ منهم ووضعهُ في خزانة السلاطين العظام والى يومنا لا يعرف من امرهِ شيء. وفي مكتبة الاقباط في مصر نسخة من هذا الاثر تقرب من العهود التي وصفناها لكنَّها اقصر منها. وفي آخرها يُقال أنها «كُتبت بيد علي بن ابي طالب في ٣ محرَّم السنة الثانية للهجرة الموافقة لاوَّل آب سنة ٦٢٢». وكفى بذلك دليلًا على اصطناعها (لهُ بقيَّة)

الكتابات العربية في جبل الطور

ملخّص بتصرُّف عن مقالة للاب هنري لامنس اليسوعيّ

في اليوم السادس من شهر آب ترفع كنيسة المسيح شرقًا وغربًا نظرها الى الجبل العالي الذي تجلّى على مشارفهِ الكلمة ابن الله فاراد ان يُعلن لبعض تلاميذهِ ما كان يحجبهُ عن ابصارهم من المجد الباهر والعزّ القاهر. على انَّ الانجيليين الذين ذكروا هذا الحادث الجليل لم يفيدونا اسم الجبل الذي جرت عليهِ تلك المظاهر الفخيمة. لكنَّ الغالب على اراء الكتبة الكنسيين منذ قرون النصرانية الاولى انَّ الجبل المنويّ انَّما هو جبل تابور المعروف ايضًا بجبل الطور

وهذا الجبل ينتصب في اواسط بلاد الجليل منفرزًا عنها على صورة قبّة عظيمة احتلّ العليّ في ظلالها او قلْ مذبحًا شريفًا أُقيم لتُرفع عليه التقادم والمحرقات لعزّته تعالى او بالحري عرشًا سنيًا تتلألأ فوقهُ مجالي اللاهوت بتجلّي السيّد المسيح. وعلوّ هذا الجبل يبلغ ٥٠٠ متر فوق سهول مرج بني عامر فيكون ارتفاعهُ فوق سطح البحر ٦٠٠ م بنيّف قليل. ومن رقي الى اعلاه اكتشف من ثمَّ جبال الجليل وجبل حرمون وبحيرة طبريّة وعدّة مدن عامرة كانت في تلك النواحي. وهذا الجبل كثير الخصب تظلّل معاطفهُ انواع الاشجار المنبسطة الافنان كالشربين والسنديان والخروب والبطم وتأوي اليه طيور البرّ والوحوش الضارية يصطادها الصيادون. وامّا اعلى الجبل فينتهي ببسيط واسع طولهُ ١٢٠٠ متر كان يُرقى اليه بدرج منقور في الصخرة من لحف الطور. وقد بقي بعض آثار ذلك الدرج الذي كان يبلغ عدد مراقيه ٤٣٤٠ مرقاة

وقد ورد ذكر التابور في تاريخ بني اسرائيل غير مرّة فأدخلهُ يشوع في تخوم ارض الميعاد وجعلهُ فاصلًا بين سبطي زابلون وايساخر. وعندهُ ظفرت دبورة باعداء قومها وأشاد صاحب المزامير بمفاخره (مز ٨٨: ١٣) وشبّه النبيّ ارميا (٤٦: ١٨) قدوم نبوكدنصّر ورفعتهُ فوق الملوك بتقدّم تابور على بقيّة الجبال

وكان الفينيقيون واليونان يعرفون جبل الطور وهم يدعونهُ اتابيريون وكان الوثنيون يكرمون عليه المشتري ويدعونهُ المشتري التابيري. وأُقيمت في مشارفه مدينة حصينة في القرن الثالث قبل الميلاد استولى عليها بالدسيسة الملك هيرودس الكبير فاخربها. وقد نال ذلك الجبل فخرًا عظيمًا بتجلّي السيّد المسيح فوقهُ كما يشهد على ذلك اوريجانس المعلم واوسابيوس القيصري والقديس ايرونيموس وورد ذكرهُ في انجيل الاثني عشر رسولًا احد اناجيل الزور الراقي الى اوائل القرن الثاني للمسيح. وقد اقامت القديسة هيلانة في القرن الرابع كنيسة على قمّته تذكارًا لهذا الواقع. وجُعل لتلك الكنيسة اسقف نُسب اليها في المجمع الخامس سنة ٥٥٣. وشيدت بعد ذلك كنائس اخرى

وممّا أخبره يوسيفوس في العاديّات اليهوديّة ان اليهود اذ سمعوا بزحفة الرومان على بلادهم على عهد وسبسيان احاطوا جبل الطور بسور عظيم وتحصّنوا وراءهُ لكنّ الرومان اخربوهُ بعد قليل

وبقي جبل الطور كزار ديني الى ايام الصليبيين فلمّا قدم الفرنج البلاد المقدسة وفتحوا سواحل الشام وبلاد فلسطين ردّوا لهذا المقام عزّهُ وشرفهُ فشيّدوا للرهبان البندكتيين ديرًا كبيرًا جعلوهُ كقلعة منيعة في وجه الاعداء لكنّ المسلمين غزوهُ مرارًا وقتلوا رهبانهُ او طردوهم واستولوا على ابنيتهم فخربوها. ثم رأى ملوك الشام ما لجبل الطور من المنعة وحسن الموقع فعزموا على تشييد حصن حصين يسكنهُ المسلمون ويشنّون منهُ الغارات على البلاد الفرنجيّة المجاورة قال ياقوت في معجم البلدان (٣: ٥٦٦): «ثم بنى هناك الملك المعظّم عيسى ابن الملك العادل ابي بكر بن أيوب قلعة حصينة وأنفق عليها الاموال الجمّة واحكمها غاية الإحكام فلمّا كان في السنة ٦١٥ (١٢٢٠م) وخرج الفرنج من وراء البحر طالبين للبيت المقدس امر بخرابها حتى تركها كالامس الدابر»

وفي هذا القول نظر لأن الحصن الذي ذكرهُ ياقوت أُقيم قبل ذلك بعدّة سنين اي السنة ٦٠٧ للهجرة (١٢١١) كما ذكر مؤرخو الصليبيين وكان الذي سعى في الامر الملك العادل الأيوبي ابو الملك المعظّم عيسى وقد جدّ في العمل بنشاط عظيم حتى اتمّ منهُ سنة ٦٠٩ قسمًا كبيرًا ثم أكمل العمل ابنهُ الملك المعظّم كما روى ياقوت ثم خاف لئن يستولي عليه الفرنج فاخربهُ

ولنا على هذه الامور كلّها شواهد ثابتة في الكتابات العربية التي وُجدت في جبل الطور وكنّا ممّن اسعده الحظّ برسم بعضها وان سبقنا الى نشرها احد ائمة الاثريين العلّامة ماكس ڤان برخم (MuNDPV, 1903, 33-45) واوّل هذه الكتابات تشير الى انشاء القلعة هكذا:

امر بانشاء هذه القلعة المباركة مولانا السلطان الأعظم الملك العادل المجاهد المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ابو بكر ابن ايوب خليل امير المؤمنين عند عوده من الشرق واجماع العسكر المنصور ونزوله بظاهر الطور بعد انقضاء الهُدْنة (١ وكان الابتداء بالعمل في يوم الاحد لخمس مضين من ذي الحجّة سنة سبع وستمائة وركب هذا في ولاية الامير حسام الدين لولؤ ابن عبد الله الملكي المعظّمي

---

١) يريد الهدنة التي كان اتّفق عليها مع الفرنج سنة ٦٠٣ (١٢٩٧). ويشير بعوده من الشرق الى حروبه في العراق والجزيرة

ودام ملك الملك العادل الى السنة ٦١٥هـ (١٢١٨) وفيها كانت وفاتهُ الّا انهُ كان في آخر حياتهِ قد اعتزل الاشغال فولّى مصر ابنهُ الكامل ووكل الى ابنهِ الآخر عيسى المعظَّم تدبير بلاد الشام. وفي كتابات جبل الطور ما يدلُّ على سلطنة الملك المعظَّم المذكور. منها كتابة تاريخها سنة ٦١٠ (١٢١٣) كان اوَّل من نشرها الاستاذ اليوناني يوانيدوس وهذه صورتها بعد البسملة وآية قرآنيَّة من سورة البقرة:

امر بإنشاء هذه القلعة المباركة مولانا السلطان الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل ابي بكر بن أيوب وكان بدؤ العمل في خامس المحرَّم سنة عشر وستمائة (٢٧ أيار ١٢١٣) في ولاية العبد الفقير لؤلؤ المعظَّمي

فيؤخذ من هذه الكتابة انَّ الملك المعظَّم هو الذي انشأ القلعة الّا انَّ الملك العادل كان سبق فوضع اسوارها وشيَّد قسمًا من ابنيتها كما رأيت في الكتابة السابقة. وكأنَّ الملك المعظَّم لم يرَ داعيًا الى تكرار الامر مع وجود تلك الكتابة فذكر عمل نفسه الخاصّ

وللملك المعظَّم كتابة ثانية امر برسمها في السنة عينها وهي اليوم في ساحة دير الآباء الفرنسيين حيث اخذنا رسمها (اطلب العدد ٢ في صورتنا) وهذه الكتابة كان الدكتور مورتس اخذ رسمها وارسلها الى الاثري ڤان بركم وهذا فحواها بعد البسملة

امر بعمارة هذه البركة المباركة مولانا السلطان المعظَّم شرف الدنيا والدين في شهور سنة عشر وستمائة (١٢١٣–١٢١٤) في ولاية الفقير الى رحمة الله حسام الدين لؤلؤ

فتكون اذن الكتابة دالَّة على انشاء بركة وقد ظنَّ العلّامة ڤان بركم انَّ لفظة «البركة» ليست واضحة وانَّهُ من المحتمل ان يكون المراد «البَدَنة» والبدنة كالسور والحمى الّا انَّنا تحقَّقنا انَّ في الاصل «بركة» ليس «بدنة»

وقد جاء ذكر البَدَنة في كتابة ثالثة للملك المعظَّم بعد هذا التاريخ بسنتين وجدها الادباء يوانيدس والدكتوران شوماخر ومورتس ونشرها المسيو ڤان بركم هكذا بعد البسملة:

مـمَّا امر بعمارة هذه البَدَنة مولانا السلطان الملك المعظَّم شرف الدنيا والدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدنيا والدين ابي بكر بن أيوب لمستهلّ ربيع الآخر سنة اثني عشر وستمائة (٣ حزيران ١٢١٥) في ولاية العبد الفقير الى رحمة ربهِ حسام الدين لؤلؤ المعظَّمي

فهذه الكتابة كانت آخر ما خلَّف الملك المعظَّم من الآثار قبل ان يُخرب القلعة . وكأنَّ صاحب معجم البلدان اشار الى هذه الكتابة الاخيرة في الاسطر التي نقلناها عنهُ . وقد وُجدت للملك المعظَّم قطعة كتابة غير كاملة يذكر فيها انشاؤهُ لباشورة الّا انَّ هذا الاثر قد سقط منهُ تاريخهُ وبعض الفاظهِ

وقد وُجدت في جبل الطور كتابات أُخر ترتقي الى هذا الزمان لكنَّها ليست للملوك الايوبيّين وانّما هي لعمّالهم فواحدة منها للامير عزّ الدين ايبك الخادم الملكي المعظَّمي ، تاريخها سنة ٦٠٩ (١٢١٢–١٢١٣) كُتبت دلالة على عمارتهِ لاحد امكنة القلعة (اطلب العدد ٣ من صورتنا) . وهذا الاثر في ايدي الآباء الفرنسيين

ومنها كتابة أُخرى لحسام الدين لؤلؤ الذي تكرَّر ذكرهُ في الكتابات السابقة مضمونها انها رسم بعمارة منزل سنة احدى عشرة وستمائة (١٢١٤–١٢١٥) ويدعو هناك نفسهُ « بالامير الاجلّ الاسفهسلار الكبير حسام الدين لؤلؤ » (MuNDPV, p. 41)

وقد وقفنا نحن على كتابتين أُخريَين في جبل الطور لم ينشرهما احد قبلنا وكلتاهما في جنينة الآباء الفرنسيين على ضريحين للموتى فالواحدة قد سقط منها اسم الميت وتاريخ موتهِ . امَّا الثانية فترى رسمها (في صورتنا العدد ١) . ويقال فيها انَّ القبر لسنجر عتيق (اي مولى) الطوبا امير مجلس المعظَّمي ، وقد اتّسعنا في شرح هاتين الكتابتين في مجموع ظرف اساتذة المكتب الشرقي (Mélanges de la Faculté Orientale, III, 485–490) فلا حاجة الى الاطالة

ومذ ذاك العهد لم يبقَ على جبل الطور غير المعابد التي كان يزورها الزوَّار واخربها السلطان بيبرس البندقداري ثمَّ عاد النصارى وجدَّدوا بناءها في ايام الامير فخر الدين فأخذ الآباء الفرنسيسيُّون يهتمُّون بامر كنيسة جبل الطور منذ السنة ١٦٣١ ثمَّ جاء الروم وزاحموا اللاتين في سكنى الجبل وابتنوا في شماله الابنية ولهم هناك كنيسة على اسم ايليا النبي

هذا ما رأينا ذكرهُ في هذه العجالة بنسبة عيد التجلي ومن اراد الوقوف على آثار الطور واخبارهِ مفصَّلةً عليهِ بمراجعة كتاب حضرة الاب الفرنسيسيّ برنباي (Le Mont Thabor, par le P Barnabé Meistermann O. F. M., Paris 1900)

الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر

بحث تاريخي انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع لما سبق)

أُدباء الاسلام في ختام القرن التاسع عشر (تابع)

(عبد السلام الشطّي) واشتهر في طرابلس الشام قبل هؤلاء بزمن قليل الشيخ عبد السلام بن عبد الرحمن المعروف بالشطّي الدمشقي · واصل اسرتهِ من بغداد وولد هو بدمشق سنة ١٢٥٦ (١٨٤٠) ثم درس العلوم الدينيَّة والفقهيَّة على علماء الفيحاء وتعبَّد على الطريقة القادريَّة · وكان محبًّا للآداب مشهورًا بفرط الذكاء وحسن النظم غلب على شعرهِ اللطف والعذوبة · ولهُ ديوان طُبع بهمَّة حفيدهِ محمَّد جميل الشطّي سنة ١٣٢٤ · وقد سافر المترجم الى بلاد الروم مرَّتين ودخل القسطنطينية سنة ١٢٩٣ ووُجّه عليهِ تدريس ادرنه وخُصّص لهُ راتب سنوي من الصرَّة السلطانيَّة · توفي فجأة في دمشق في ١١ محرَّم سنة ١٢٩٥ (منتصف كانون الثاني ١٨٧٨) · ومن شعرهِ ما قالهُ في وصف بيروت وتهنئتها بسحب ماء نهر الكلب اليها:

بيروت اني في هواها ارغبُ ... من ثغرها الابسام طابَ المشربُ
يا حسنها من بلدة قد خصَّها ... ربُّ العباد بما يسرُّ ويطربُ
بين البلاد بديعةٌ فكأنّها ... شمسٌ على افق العلى لا تغربُ
يا طالما قد زرتُها فوجدتُها ... ظمآنةً من حرّها تتلهَّبُ
حيرانةً حار الطبيب بدائها ... ودواؤها قد عزَّ فيهِ المطلبُ
تشكي وتبكي حسرةً وتأسُّفًا ... من فقدها ما تشتهيهِ وتطلبُ
من بعد ذاك اتيتها فوجدتُها ... تختالُ من عجبٍ وذيلًا تسحبُ
فسألتها عن حالها فتبسَّمت ... وانحلَّ من فيها فراتٌ اعذبُ
فاستبشرت نفسي ببرد حميها ... فغدوتُ في نعمائها اتقلَّبُ
وانيتُ في هذا النظام مهنّئًا ... اذ جاءَهم هذا الطهور الطيّبُ
ورجوتُ من فضل الالهِ دوامهُ ... في كلّ حين دائمًا لا يُسلَبُ

وكتب رقعةً دعا بها بعض اصحاب الفضل من اصدقائهِ:

يا سادةً في دورهم تسلسلت قومٌ كرام
وزيَّنوا بجمعهم ليل الشتا في كل عام
وشرَّفوا بقربهم صديقهم عبد السلام
اذا اردتم انهُ يحظى بكم على الدوام
أعطوهُ منكم موثقاً بخطكم على الكلام
في ليلةٍ لطيفةٍ في دارهِ لكم تقام
ويرتجي من فضلكم ارّخ بهِ الدور ختام (١٢٨٩)

وقال مستغفرًا:

يا ربِّ انَّ العبد عبدٌ مذنبٌ وهو فقيرٌ ما لـهُ عنك غنى
قد قطف اللذَّاتِ في شبابهِ بجهلهِ فاغفر لهُ ما قد جنى

(محمد الميقاتي) وفي هذا الوقت عُرف شاعر آخر فاضل وهو الشيخ محمَّد افندي ابن عبد القادر الميقاتيّ وكان طرابلسيّاً اديباً لهُ النظم الرائق فجمع شعرهُ بعد وفاتهِ سنة ١٣٠٢ (١٨٨٤) الاديب عبد الحميد بن محمَّد حبلص احد مواطنيهِ وطبعهُ في بيروت في المطبعة الادبيَّة سنة ١٣٠٤ ودعاهُ ديوان حسن الصياغة لجوهر البلاغة فمن قولهِ يعاتب الدهر:

الدهر شيمتهُ يُبدي لنا العجبا فلا تكن من فعال الدهر متعجبا
ولا تثق بشرابٍ منهُ وقت صفا فيستحيلُ سرابًا صَفوُهُ وهَبَا
ولا يغرَّك ما يوليك من مِنَحٍ فقلبُها مِحَن تزكو بهِ لهبا
ان يسمحِ الدهرُ يومًا يستردُّ غدًا او يُحسن الدهر يومًا بالاسى انقلبا
هيهاتِ يُجدي الفتى من دهرهِ هربٌ ولو بها فوقَ افلاك السما هربا
فالصبرُ اجملُ بالحرّ الكريم على ما خطَّهُ قلم الاقدارِ او كتبا
ما لي وللدهر يرميني بكلكلهِ كأنَّني قاتلٌ امًا لهُ او ابا
ويلاهُ من زمني كم ذا يُقابلني من جورهِ بالأسى ويلاهُ وا حربا
اهل البسيطة قد اثنت على ادبي واذعنت لي بأني سيّد الادباء
ودأبُ قومي معاداتي ومنقصتي ولا ارى ليَ ذنبًا لا ولا سببا
لا ذنب لي غير اني فقتهم شرفًا وانني فقتُهم بين الورى رُتبا
ما ضرَّني لا اقال الله عثرتهم لو انَّهم قابلوا فضلي بما وجبا

ولهُ مؤرخًا دار بناها آل كتسفليس في طرابلس:

لكمُ الهنا يا آل كتسفليس يا أهلَ المآثرْ

جددتمُ فوق العلى بيتَ المكارمِ والمفاخرْ
بيتٌ لحسنِ بنائهِ بدرُ المسرَّةِ فيهِ سافرْ
قد شادهُ اسكندرٌ مَنْ فضلهُ في الناسِ ظاهرْ
والسعدُ حول رحابهِ بالعزّ والاقبال دائرْ
وفم السعادة قد غدا ارّخْ لهُ بالشكر فاغرْ (١٨٦٨)

وقال مخمّسًا :

لن أشتكي ضمني وضنكي وشدَّتي وَمَنْ يَشْفِ اسقامي ويرحمْ لعبرتي
لجأتُ فما لي غير ذلّ مقالتي الهي بتقديس النفوس الزكيَّةِ
وتجديدها من عالم البشريَّةِ
وبالنور سرّ الكائنات ومن دنا اليك مقامًا لن يحيط بها سنا
وناديتهُ ها انت حي وها انا أزلْ عن فؤادي ما أُلاقي من العنا
فاني قليل الصبر عند البليَّةْ .

(عبد الفتَّاح اللاذقي) ونبغ في اللاذقية في الوقت عينهِ شاعر متفنّن ابو الحسن عبد الفتَّاح ابن مصطفى بن محمّد المحمودي اللاذقي العطَّار كان مولدهُ سنة ١٢٥٨ (١٨٤٢) ونظم الشعر في شبابهِ ثم جمعهُ في ديوان دعاهُ « سفير الفؤاد » فطبعهُ في بيروت في مطبعة جمعيَّة الفنون سنة ١٢٩٧ (١٨٨٠) وجعلهُ اربعة اركان في المدائح والتوسُّلات ثم في امتداح السادات ثم في التهانئ والمراثي واخيرًا في القدود والموشَّحات. فمن ذلك قولهُ مبتهلًا الى الله عزّ وجل:

شكوتك فاقاتي وانك تعلمُ بحالي ونار الفقر في القلب تُضْرَمُ
وللخلق لا اشكو افتقاري وفاقتي فمن يشكُ للمخلوق لا شكَّ يندمُ
فجُدْ لي برزقٍ يملأ القلبَ عفَّةً فجودُكَ لي عزٌّ وكنزٌ ومغنمُ
والّا فصبّرْني على ما قسمتَ لي فأمرك يا ربَّ البريَّةِ مُبْرَمُ

وكتب الى نائب المحكمة فيض الله افندي عن لسان شيخ كان خدم جبل الريحان وصلَّى في اهلهِ فلم يعطوهُ حقَّهُ من الموسم:

اخا الافضالِ فيضَ الله يا من حوى المجد المؤثَّل واللطافهْ
فاقِلْ شفقَتي هذا فقيرٌ وموصوفٌ بانواع المنافهْ
لقد صلَّى بأقوامٍ إمامًا وفي محرابهم جعلَ اعتكافهْ
وفي شهر الصيام فكم تمنَّى وكم قد سار مع بُعد المسافهْ
لقد جحدوا امامتهُ وجادوا لهُ بالهزل جدًّا والكثافهْ

وما جادوا لـهُ ابدًا بِبُرٍّ ولا عملوا لهُ ابدًا ضيافه
وقد حرموه من اكل المحاشي ومن اكل القطائف والكنافه
فهم قومٌ لقد مكروا جدًا وليس لهم من المولى مخافه
وقد رُفعت قضيّتهُ اليكم وفي انظاركم يرجو انصافه
اخا الافضال فانظر امر هذا فعينُ العدل لم تنظر خلافه
فهذا قد أُضيف الى ملاكٍ وحاز الفخر في تلك الاضافه

ومن محاسن شعرهِ قولهُ في مولود سنة ١٢٧٩ :

الروضُ ناءٍ زاهرُ والغصنُ باءٍ باهرُ
والسعدُ وافى مقبلًا والفخرُ وافٍ وافرُ
والطيرُ يشدو قائلًا هلَّ الهلالُ السافرُ
اهلًا بهِ من قادمٍ في كلّ جاهٍ جاهرُ
بشراك فيهِ انّها الـنخلُ الفخيم الفاخرُ
فاهنأ بهِ لانهُ نعمَ الغلامُ الناضرُ
بيت الهنا والسعدُ فيهِ م كل عامٍ عامرُ
والعزُّ فيهِ قد غدا والبشرُ فيهِ ظاهرُ
والفخرُ نادى منشدًا ارّخ غلامٌ باهرُ (١٢٧٩)

(احمد فارس الشدياق) كان مارونيًّا لبنانيَّ الاصل مولدهُ في عشقوت سنة ١٨٠٤ ثم انتقل مع والديهِ الى ساحل بيروت سنة ١٨٠٩ فسكن الحدث ودرس مبادئ العلوم اللسانية في عين ورقة ثم قصد القطر المصري فاتقن فيهِ العربية وجعل يكتب في اوَّل جريدة ظهرت هناك اي الوقائع المصريَّة وفي السنة ١٨٣٤ دعاهُ المرسلون الاميركان الى مالطة وولَّوهُ ادارة مطبعتهم فتظاهر بالدين البروتستاني وخدم الرسالة الاميركيَّة بنشاط وطبع في مالطة بعض مصنَّفاتهِ والَّف هناك كتابهُ الموسوم «بالواسطة في معرفة مالطة» ثم تجوَّل مدَّة في انحاء اوربَّة وخصوصاً في فرنسة وانكلترة فأكرم اهل تلك البلاد مثواهُ وصنَّف حينئذٍ كتابهُ الفارياق الذي لم يرعَ فيهِ جانب الادب وشفعهُ بكتاب آخر اجدى نفعاً واصوب نظرًا دعاهُ «كشف المخبَّا عن احوال اوربَّا» واشتغل في اندرا في تعريب ترجمة التوراة فزادت بذلك شهرتهُ. ولمَّا جاء باي تونس احمد باشا زائرًا مدينة باريس مدحهُ الشدياق بلاميَّة جارى فيها لاميَّة كعب ابن زهير فأعجب من حسن نظمهِ ودعاهُ الى خدمة دولتهِ في تونس فلبَّى دعوتهُ ورحل

الى المغرب وكان هناك يحرّر جريدة الرائد التونسي ٠ وفي مدة اقامته في تونس سوِّل اليه اعيانها بان يعتنق الدين الاسلاميّ فجحد البروتستانيَّة طمعًا بالمناصب كما جحد الكثلكة طمعًا بالمال ٠ وفي السنة ١٢٧٤ (١٨٥٧) طلبتهُ الصدارة العظمى الى الاستانة وعهدت اليهِ تصحيح طباعتها بضع سنوات ٠ وهناك باشر السنة ١٢٧٧ (١٨٦٠) جريدته الشهيرة بالجوائب فظهرت ٢٣ سنةً بانشائهِ وانشاء ولدهِ سليم الى السنة ١٨٨٤ فأبطلت ٠ وكانت وفاة احمد فارس بعد ذلك بثلاث سنوات ١٨٨٧ فنُقلت رفاتهُ الى لبنان كما اوصى قبل موتهِ ٠ ولاحمد فارس مؤلفات جليلة غير التي ذكرناها اخصُّها سرّ الليال في القلب والابدال على شكل معجم لم يتمَّهُ ٠ وكتاب منتهى العجب في خصائص لغة العرب اتلفهُ الحريق قبل ان يُطبع ٠ ثم الجاسوس على القاموس انتقد فيهِ على قاموس الفيروزابادي ٠ وكتاب غنية الطالب ومنية الراغب ٠ وكتابان في تعليم اللغتين الانكليزيَّة (الباكورة الشهيَّة) والافرنسيَّة (السند الراوي) وردود على انتقادات الشيخ ابراهيم اليازجي اللغويَّة ٠ وبهمَّة المترجم طُبعت في مطبعة الجوائب عدَّة كتب ادبيَّة قديمة استخرجها من مكاتب الاستانة فنشرها بالطبع بالحرف الاسلامبوليّ المُشرق ٠ ومن مآثرهِ ايضًا عدَّة قصائد ومنظومات طبع منها نبذة في ٢١٩ صفحة سنة ١٢٩١ ٠ فمن اقوالهِ الحسنة ما وصف بهِ الحرب السبعينيَّة بين فرنسة والمانية ٠ وهذا مطلع تلك القصيدة التي تزيد عن مئة بيت :

أَصبتْ فرنسا بالرجال وبالمالِ ... فيا ويحها من بعد عزٍّ واقبالِ
اعدَّت جيوشًا للقتال وجهَّزت ... بوارجَ حربٍ في البحار كأجبالِ
وقالت الى برلين يا جُنديَ انفروا ... فتلك التي قد كدَّرت صفو احوالي
وتلك التي قد زاحمتني على المنى ... ولم تنتْ قبلَ اليوم تخطرُ بالبالِ
وصولوا على جرمانيا كلّها فقد ... اراها بدا منها تطاولُ اذلالي
فلي قيصرٌ قرمٌ جليــلٌ تخابهُ ... جميع ملوك الارض هيبةَ رئبالِ
اذا أنذر الاملاك حربًا تزلزلت ... بمالكهم من بأسهِ ايّ زلزالِ

وقال في مطاردة الالمان لنابوليون وفي موقعة سيدان :

فطاردهُ جيشُ العدوّ معقّبًا ... فولّى الى شالون يزعج كالزالِ
ومنها الى سيدان بالجيش كلّهِ ... عقيبَ معاناةٍ وبؤسى وآجالِ
وذلك حصنٌ عند بلجيكَ حولهُ ... ربى وتلالٌ حبّذا الوَزَرُ العالي
ولكنّهم تأَووا سفاهًا عن الربى ... فحلّت بها الجرمان من دون اهمالِ

هنالكَ همَّ الويل والشرُّ والردى بترميل ازواجٍ وتيتيم اطفالِ
وتبضيع آرابٍ وتقطيع اوصالٍ وتفليق هاماتٍ وتدمير اطلالِ
وبزَّتهمُ الجرمانُ فاستسلموا لهم ثمانين الفًا او يزيدون في الحالِ

الى ان قال ذاكرًا فتنة باريس وخلع الامبراطور :

فلم يبقَ من ذا الجيش أجمعَ راجلٌ ولا فارسٌ فالجوُّ من ذكرهم خالِ
فلمّا درت باريس ذا الخطبَ اعولت وضجّت وباتت في شجون وولوالِ
وقالت مُشْتِي دولةٌ قيصريّةٌ بإهلاك اجنادي واتلاف اموالي
وانَّ صلاحي دولةٌ جمهوريّةٌ تُسدِّدُ اعمالي وتُصلحُ احوالي
فنادت بخلع الأمبَراطور وابنِهِ وثارت لأخذ الثار ثورةَ قتّالِ

وختمها بهذا البيت الحكميّ احسن ختام :

اذا لم يكن للمرءِ من ربّهِ هدىً فلا شيءٌ يجديهِ من النبل والنالِ

(لهُ بقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

E. J. W. GIBB MEMORIAL SERIES: The Irshad al-Arib ila Ma'rifat al-Adib *or* Dictionary of learned men of Yakût, *edited by* D. S. Margoliouth. D. Litt., *London, Luzac and C*ᵒ, 1907-1909, 2 vol. XVI-870.

ارشاد الاريب الى معرفة الاديب لياقوت الرومي

في اواسط الصيف من السنة ١٨٩٠ أُتيح لنا ان ندخل مكتبة اوكسفرد الغنيّة بمخطوطاتها الشرقيّة فكان الكتاب المعنون آنفًا من جملة التآليف التي استحسنّاها ونقلنا عنها بعض مرويّاتها لشهرة صاحبها مؤلف اوسع الجغرافيّات العربيّة معجم البلدان الذي شفعهُ بهذا الكتاب ارشاد الاريب المعروف ايضًا بمعجم الأُدباء او طبقات الأُدباء. ولقصر وقتنا لم يمكنّا ان ننسخهُ كلَّهُ فكنّا نتمنّى ان يقوم يومًا احد الأُدباء فينشر هذا التأليف بالطبع وها قد تمَّ الامر بعد نحو عشرين سنة بهمّة الفاضل الهمام الدكتور د. س. مرجليوث ولعلَّ الذي منع الادباء عن نشر هذا الاثر الفريد انَّ النسخة الاكسفرديّة وحيدةٌ لا يُعرف لها ثانٍ للمعارضة بينهما. وهي مع ذلك سقيمة ليست قديمةً فتحتاج

الى ترو ومراجعات واصلاحات عديدة. الّا انّ جناب الدكتور لم يثنِ عزمهُ شيءٌ من تلك العقبات فقام بالامر احسن قيام واستعان لتنقيح الكتاب ببعض ادباء القاهرة كالمرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي والاديبين الفاضلين قسطاكي بك حمصي وجرجي زيدان فجاء التأليف مطبوعاً طبعاً متقناً مضبوطاً ضبطاً وافياً في جزءين كبيرين. امّا موضوع الكتاب فتراجم بعض مشاهير الادباء من القرن الرابع بعد الهجرة الى ايّام المؤلف في القرن السابع اثبت سيرهم على سياق حروف المعجم من حرف الالف الى حرف الجيم. وبقيّة هذا الكتاب قد اخذها الضياع ويا ليت نشر هذا القسم يستنهض همّة احد الادباء على طلب القسم المفقود فتتمّ بهِ الفائدة ويربح شكر العلماء. لانّ ياقوتاً في تراجمه لا يكتفي بوصف عقيم لاهل الأدب بل كثيرًا ما يتّسع في تعريف احوالهم ويروي دقائق حياتهم ويدوّن اشياء من اقوالهم واشعارهم وحكمهم الى غير ذلك ممّا تلذّ مطالعتهُ وتفيد معاً وبعض هذه التراجم متّسعة مستفيضة كترجمة ابي العلاء المعرّي (وقد وقع في الصفحة ١٨٤ س ١٢ منها تصحيف: «وان كان حنانا عدي» والصواب: «حنّانا عدي» والبيت للاخطل) وكترجمة ابراهيم بن هلال الصابي وغيرهما فنشكر الدكتور مرجليوث على سعيهِ في نشر هذا الاثر الدفين ونتمنّى لكتابهِ رواجاً طالبين من جنابهِ ان يضيف اليهِ فهرساً مطوّلًا لاعلامهِ ل. ش

Matharan, S. J: Asserta Moralia, Editio 11ª ad normam recentissimorum decretorum aucta et emendata. 1909. pp. X-276 in-12 *Paris, Beauchesne.*

خلاصة اللاهوت الادبيّ

انّ اللاهوت الادبيّ في الكنيسة اشبه ببحر زاخر تتّسع كل يوم ارجاؤهُ بما يُضاف اليهِ من أحكام الكرسيّ الرسولي وايضاحات المجامع المقدّسة. فبعد ان يخوض الاكليريكيّون عُبابهُ يحتاجون الى نظر عام وخلاصة جامعة لما فيهِ من الابواب والفصول والقضايا التي بموجز الكلام توقفهم على ما سبروا اغوارهُ وتتبّعوا دقائقهُ. فلهذه الغاية وضع الاب ماتاران اليسوعي هذا الكتيّب فجعلهُ كتذكرة لطلبة اللاهوت بل للكهنة انفسهم يغنيهم عن المطالعات الواسعة. فراج الكتاب ايّ رواج حتى بلغ اليوم الطبعة الحادية عشرة وهي التي أرسلت الى ادارة المشرق. فنحضّ الاكليروس على اقتنائها وممّا

يجدونهُ فيها لباب المنشور الاخير الذي اصدره الحبر الروماني في الخطبة والزواج واوّلهُ (Ne temere)

ب٠ج

Nutt's Conversation Dictionaries compiled by R. Jaeschke. English-arabic conversation Dictionary, with a Grammar, a Collection of Phrases and an arabic-english Vocabulary, *London, D. Nutt*, 1909, pp. 371.

محاورات بالانكليزية والعربيَّة مع معجم للالفاظ ومختصر نحويّ

هذا دليل جديد لفائدة الاجانب الانكليز المتجوّلين في اقطارنا الشرقيَّة كالدليل الذي وضعهُ بالافرنسيَّة احد اساتذة مدرستنا الادباء المعلم يوسف افندي حرفوش فجُدّد طبعهُ آخرًا وكالدليل الالماني للعلَّامة هرتمان وغير ذلك ممَّا يمهده اصحاب الاسفار. وهو دقيق الحرف جليُّهُ صغير الحجم لا يتبرم بثقلهِ المسافر. ومع هـذا فانهُ يحتوي مختصرًا لاصول اللغة العربيَّة الدارجة في مصر والشام يليهِ مجموع اخصّ العبارات التي يحتاج اليها الغريب في سفرهِ مرتَّبة حسب ابواب اللغة على ثلاثة أعمدة بالانكليزيَّة و اللهجـة المصريَّة واللهجة الشاميَّة وفي اثرها محاورات عن الامور الطارئة للمسافر في رحلتـهِ ثم معجمان انكليزي عربيّ وعربيّ انكليزيّ لاخصّ الالفاظ الشائعة في اللغتين وكل ذلك بالحرف الاعجمي. فترى من هذا النظر وفرة محتويات هذا الدليل ومنافعهُ للمسافرين. ويا ليت المؤلف كان تبع في تمثيل الحروف العربيَّة الطريقة الشائعـة عند العلماء فانَّ اختلاف الكتبة في هذه الاصطلاحات يوقع القرَّاء في الحيرة والالتباس. وممَّا نأخذهُ على المؤلف ما ذيَّل بهِ صفحتهُ ٢١٠ عن العلاقات بين المرسلين والكنيسة الشرقيين فانهُ كان عن ذكرهِ في غنًى فضلًا عن انهُ ليس بصحيح

الاب يوسف موجين

Cray's Collection praktischer Sprachfürer: Der perfekte Turke. Eine Anleitung die türkische Vülgaersprache ohne Lehrer richtig lesen, schreiben und sprechen zu lernen, von **Alfred Radspieler**, *Leipzig, G. Engel*, IX-205. 1908.

اصول اللغة التركيَّة للتكلُّم بها وكتابتها (قبا تركجة)

تجد في هذا الكتاب لتعلُّم التركيَّة كل ما ذُكر في وصف الكتاب السابق الَّا انهُ أرقى منهُ درجةً وافضل اسلوبًا وضعهُ مؤلفهُ الفاضل ليس فقط لسياحة وقتية بل لمعرفة اللغة

ومطالعة مصنَّفاتها والكتابة فيها . امَّا طريقتهُ فهي الطريقة الحدثة المعروفة بطريقة كراي (Cray) وهي تجمع بين القسم النظري لشرح الاصول مع تعريف قوانين اللغة والقسم العلمي وفيهِ التمرينات المختلفة من التركية واليها . والكتاب مصنَّف بالالمانية ولعلَّهُ يُنقل الى الافرنسيَّة والانكليزيَّة لفوائدهِ وهـذه بعض اغلاط نشير الى المؤلف باصلاحها في طبعة ثانية : (ص 7) فليقرأ « Wer bana » لا « Wir » . (ص ١٠٥) آو بالمدّ معناها الصيد وبلا مدّ هي البيت . (ص ١٢٠) كتب « dere » التي معناها الوادي وهو يريد « tere » بالتاء . اي السمن كذلك تُصلح « zeidin » بـ « zeitin » وهذه من اغلاط الالمان الذين يبدلون حرف t بحرف d

ل . ر

La Doctrine de l'Islam par le Bon Carra de Vaux, *Beauschesne et Cie, Paris*, 1909, p. 319.

تعليم الاسلام الديني

للدين الاسلامي اصول ثابتة يرجع معظمها الى الاعتقاد بالتوحيد ونبوَّة صاحب الشريعة والايمان بملائكة الله ورسلهِ وقضائهِ ويوم الآخير يُضاف اليها احكام شرعيَّة وفرائض ونوافل وكل ذلك مفصَّل في الكتب الاعتقاديَّة والفقهيَّة . على انَّ علماء الفرنج لا يقتنعون بهذه الاصول القليلة فيبحثون في كتب الشيوخ والعلماء ويتصفَّحون تآليف اصحاب الطريقة الصوفيَّة وغيرها فلا يقرُّ لهم قرار حتى يستخرجوا من تلك التآليف بعض تعاليمها فاحصين اطرافها ويعرضونها على اقوال القرآن والحديث ويضيفون اليها ملحوظاتهم الخاصَّة فيبتنون من كل ذلك بناء من هندستهم يدعونهُ بالتعليم الاسلامي الديني . ومما نُشر من ذلك آخرًا كتاب لاحد كبار المستشرقين الفرنسويين الذي درس العلوم الاسلاميَّة وكتب عنها سابقًا نريد بهِ البارون كارا دي ڤو . وقد اطَّلعنا على هذا التأليف الجديد فرأيناهُ سهل الانشاء لذيذ المطالعة كثير التفنُّن في الكتابة يُستدلُّ من فصولهِ على سعة معارف كاتبهِ وتضلُّعهِ بالآداب الشرقيَّة . الَّا انهُ في عدَّة امور يقصر نظرهُ الى بعض الظواهر الخارجة فلا يبحث عنها بحث الفيلسوف المدقّق واللاهوتيّ العالم ولا شكَّ انهُ كان تدارك بعض احكامهِ وعدل عن بعض إنتقاداتهِ لو عاش مثلنا في الشرق ورأى الاسلام رأي العيان في كل احوالهِ دينًا ودنيا . ومع هذا فانَّنا نراهُ تلافى شيئًا من اقوالهِ السابقة في تآليفهِ الاولى . وعلى كل حال انَّنا نحضُّ محبي الشرقيات على مطالعة هذا الكتاب لكثرة فوائدهِ التي تشفع بنقائصهِ

ل . ش

Au Pays de la Reine Candace par JEAN D'ALLEMAGNE, in-16, pp. 46, Paris, Bloud et Cie.

بلاد الحبش

كثر في هذه السنين الاخيرة عدد الذين طافوا اقطار الحبش ووصفوا احوال تلك البلاد وعادات اهلها في دينهم ودنياهم ولخصوا تواريخ طوائفها وملوكها حتى اضحت هذه التآليف كافيةً لتنظيم مكتبة واسعة. امّا الذين لا يسمح لهم الوقت بطالعة تلك المصنّفات فنحضّهم على مطالعة هذا الكتاب الصغير الذي جمع فيه كاتبهُ خلاصة تآليف متعدّدة عن الحبش فدوّنها في صحائف قليلة الاوراق كثيرة المضمونات مع انسجام انشاء مؤلفها وعدّة تصاوير ترغّب في مراجعتها م. ش

D. P. Gostaoui: Relazioni della Nazione Maronita colla Santa Seda nel secolo XVIII. *Beyrouth*, 1909.

تاريخ العلّامة البطريرك يوسف اسطفان والراهبة هنديّة الشهيرة

للقس بولس عبود الغسطاوي

الجزء الثاني . الاصول المحجوبة . مجلّدان ص ٦٣١ و 628

طُبع في بيروت في مطبعة التوفيق سنة ١٩٠٩

انّ الحوادث الخطيرة التي جرت في لبنان في القسم الثاني من القرن الثامن عشر ولاسيما مدّة بطركيّة السيّد يوسف اسطفان (١٧٦٦–١٧٩٣) قد استنهضت همّة حضرة القس بولس عبود الى البحث والتنقيب عن تلك المطالب ليزيل ما تراكم عليها من الشبهات ويزيّف اقوال الكتبة المتباينة فساعده الحظّ على مطالعة ونسخ معظم التقارير المتعلّقة بتلك الامور ولاسيما بالراهبة هنديّة التي شغلت عقول الناس نحو ثلاثين سنة. وكان كثير من هذه المعلومات في خزائن المجمع المقدّس في رومية وفي الخزانة البطركيّة وعند بعض الخاصّة فجمعها كلّها ونشرها باصلها الايطاليّ او اللاتينيّ وعرّبها في هذين المجلّدين واضاف اليها كثيرًا من البراءات الرسوليّة واعمال المجامع اللبنانيّة. وكان حقّ المؤلف ان يقدّم الجزء الاول على هذا الجزء الثاني ويشرح ما نوى فيه من تاريخ الطائفة المارونيّة وعلائقها بالكرسي الرسولي المقدّس في القرن الثامن عشر. ثم رأى

انهُ لأفضل ان يباشر بنشر تلك الدفائن التي حصل عليها فيستفيد منها لكتابة تاريخهِ بعد ان زادت ثقة القرَّاء بمعلوماتهِ. فنمحض حضرتهُ الشكر على كشف كل هذه الاصول المحجوبة وبعثها من مدافنها ونحضُّ محبّي الآثار الشرقيَّة على مطالعتها ل.ش

كتاب عزرائيل القوَّالين الجهلاء

نظم القوَّال خليل افندي سمعان فرح الافغالي الشحروري

الجزء الاول ص ١٢٨ سنة ١٩٠٩ طُبع في مطبعة الاجتهاد في بيروت

رضي صاحب هذا الكتاب بحكمنا السابق عن كتابهِ شمس المغنَّى كما صرَّح بهِ في هذا التأليف الجديد (ص ٣٨) واذ كانت هذه الثمرة من الدوحة نفسها لا غرو ان نثني عليها كما اثنينا على جناها السابق. والحقُّ يقال ان جناب الناظم لهذا العقد الثمين يمثل في كتابهِ صفات الشاعر المطبوع بفكاهة نفسهِ وسرعة خاطرهِ وذلاقة لسانهِ وتفنُّنهِ في ضروب الكلام لا يعوقهُ في نظمهِ البديهي شيء من المشاكل المعترضة. وكأنَّهُ في هذا التأليف الحديث قام في وجه مناظريهِ كملاك الموت عزرائيل لا يُبقي عليهم ولا يذر. ونحن كنَّا نودّ ان يكون على خلاف ذلك ملاك الحياة يشحذ قريحته في مفاخر وطنهِ ويحيي ما درس من ذكر الاجداد ويصف ما ازدان بهِ لبنان من المحاسن فتصير منظوماتهُ على صروف الزمان ويردّدها اللبنانيون في منتدياتهم ويعلّمونها صغارهم فانَّ في ذلك عائدةً اوفر من مناظرات عقيمة لا تدوم الَّا زمناً قليلاً. وممَّا خرج عن طريقة الجهاد فاستحسنَّاهُ قصيدٌ للمؤلف وصف فيهِ فروض المساواة والاخاء (ص ١١٢) اوَّلهُ:

يا من عن الامر المفيد غفلانْ قَدْ ما تجمع ذهب رنَّانْ
ان لم يكن عندك امانه وحبّ باطل غناك يا أيُّها الانسانْ
ان لم يكن عندك امانه وحبّ باطل غناك لو كنت اعظم شبّ
من لم يكن صالح غنيّ بالربّ ولا بتاجر بالسلام والصدق
يذهب غناهُ رزقة الشيطان

وكذلك قولهُ يدحض الطبيعيين فاجاد:

البعض من خالقك إلمي تمرَّكوا وتفاصحوا وتفلسفوا وتفلَّكوا

قالوا الطبيعة تكوّنت من ذاتها والعناصر نظمت حالاتها
وشبّهوا انّ للطبيعة معرفه وقوّة تحوّلها وجود حياتها
وقالوا التراب والماء والريح الخفي كانوا السبب في اتضاح حركاتها
قلتُ العدم من اين جاب الفلسفه تا رتّب الدنيا بتطبيقاتها ....
بالله عليكِ يا طبيعة اوصفي انت خلقتي الناس في هيئاتها
قلت هذا والطبيعه واقفه خرسا وطرشا وجامده بنباتها

رجوع

حقًّا الحي من العدم اوجدها كفروا الطبيعيين هلّي جبلكوا
كفروا الذين نكروك يا بارى الجميع ومن جحد اسمك فعل اثمًا فظيع

وهي طريقة بديعة تظهر ما في اللهجة العاميّة من القوّة في اخراج المعاني البليغة وتصوير الافكار السامية

السموأل او وفاء العرب

رواية تمثيلية ذات اربعة فصول تأليف انطون الجميّل

طُبعت في مطبعة الاهرام بمصر سنة ١٩٠٩ ص ٩٥

انّ وفاء السموأل من اجود المواضيع العربيّة وادعاها الى الافكار الشريفة واقتضاها ببذل الذات في صالح القريب. وكنّا اوّل من سبق الى تمثيلها في مدرستنا الكليّة قبل ٢٢ سنة. ثم عاد حضرة مدير مدارسنا العربيّة الاب خليل اده سنة ١٩٠٦ فاقترحها على صورة اخرى (١ على احد معلمي كليّتنا جناب انطون افندي الجميّل احد منشئي الاهرام حالًا ففصّلها له تفصيلًا مدقّقًا في اطوارها ومشاهدها وممثليها فابرزها الاستاذ على تلك الصورة ومثّلها اوّل مرّة في مرسح زهرة سوريا سنة ١٩٠٧ ثمّ نقّحها وحسّنها واتّسع فيها فطبعها آخرًا في مطبعة الاهرام. فلا نشكّ في ان ارباب المدارس يقبلون على هذه الرواية لما يعرفون من حسن ذوق كاتبها وتفنّنه في الانشاء ووصفه للعواطف. وهي تطلب في بيروت من مكتبتي سليم افندي صادر وموسى افندي صفير ل. ش

١) وقد انجز حضرة الاب اده عمله بعد ذلك فصنّف رواية السموأل ومثّلها في مرسح مدرستنا قبل سنتين فنالت نجاحًا عظيمًا

رسالة الماطس

لابن جلا وهي صدى رسالة الغفران للمعرّي (ص ٢٤)

لا ندري كيف نصف هذه الرسالة التي وردتنا من مصر دون ان يُذكر محلّ طبعها واسم طابعها. بل احترنا في تسميتها بالماطس كما رابنا اسم مؤلفها «ابن جلا» وطلّاع الثنايا. فكأنَّ كاتبها خاف ان يصرّح باسمه فأظلمهُ بالجلا.. وزاد في التعمية بقولهِ أنّها صدى رسالة الغفران لابي العلاء المعرّي التي طُبعت قبل سنتين وكان مصححها الشيخ ابراهيم اليازجيّ قبل وفاتهِ بقليل. أفتكون الماطس صدى افكار ذلك الشيخ او بعض اصحابهِ فالله اعلم. وما لا يُنكر ان كاتب هذه الرسالة حديث العهد وان حاول تقليد انشاء القدماء.. وهو مع ذلك من المجاهرين بالالحاد لا يؤمن باحد الاديان الثلثة النصرانية والموسويّة والاسلام فيرى في كل دين ما لا يرضى بهِ فهمهُ. وقد اعترض على سفر التكوين (ص١٦–١٨) ببعض الاعتراضات التي تدلُّ على سخافة عقلهِ ليس على «خرافات الكتاب» الكريم كما زعم. ثم ذكر السيد المسيح فتشكَّك من ذلهِ وضعتهِ وارتأى انهُ «كان أليق بهِ لو كان اجلّ وارفع» فاستحقَّ بهذا الحكم البارد ان يُنظم في سلك اولئك الحكماء الذين ذكرهم الرسول في رسالته الى اهل كورنتس حيث قال انَّ الله اباد حكمة الحكماء ورذل عقل العقلاء فجعل ضعف ابنه الالهيّ قوَّةً وذلّه حكمةً ليخزي كل قويّ وحكيم فلا يفتخر ذو جسد امامه ل. ش

شذرات

عصر الرشاد — للكاتب الاديب الياس افندي نقولا ظاهر.

حيُّوا فتاة الترك في ذا النادي   وأقروا السلام عصابة الاعجادِ

الناهضين الى الحضارة والعلى   بعزائمٍ شمّاء كالاطوادِ

النابذين عرى التشاحن بينهم   السالكين بأُلفةٍ ورشادِ

الراغبين عن الضلالة في الهدى   الرافلين بحلّة الارشادِ

اعني بهم اعضاء تركيا الفتا   ةِ الناشرين بيارق الاسعادِ

قوم بهم سمت الرعية للعلى ... بمآثرٍ لهمُ بلا تَعْدادِ
تخذوا مناصرة الضعيف شعارهم ... وغدوا لاهل الظلم بالمرصادِ
عضدوا رجال الفضل ممن قد اناخَ ... عليهم الدهر الخؤون العادي
تبّاً لكل مماذقٍ ومخاتلٍ ... جحد الحقيقة أسَّ كل سدادِ
فهو العقوق ومن تراه نابذاً ... سبل الهداية فهو دون فؤادِ
فلحبّهم آل المروءة والوفا ... ادعوكم وعلى الرؤوس انادي
يا قومُ حَيَّ على الفلاح كذاك قد ... ناداكم صوت الرئيس الهادي
يا مسلمون ويا نصارى دينكم ... يدعو الشعوب لألفةٍ ووِدادِ
فتألفوا وتضافروا آل النهى ... هبُّوا الى الاصلاح بعد رقادِ
واسترجعوا المجد القديم بعلمكم ... وتسنَّموا العلياء كالأجدادِ
فبالاتحاد يسود كلٌّ في الورى ... رغماً عن الاضداد والحسّادِ
لا ترهبوا الظُّلّام يوماً ان طغوا ... بل حذّروهم من عذاب الهادي
ويحًا لهم يا قوم ان لم يرجعوا ... فدثارُهم اذ ذاك شوك قتادِ
فان ارعووا عن غيهم فليسعدوا ... واذا ابوا فالنار للاوغادِ
وهناك يوم الدين تجتمع الخصوم ... وسائر الاقوام والاجنادِ
لا فرق يومئذٍ امام الههم ... فالكل يوم الدين كالانداد
فالصالحون الى منصّات العلى ... والظالمون الى العذاب الآدِ

*

عبد الحميد سلوهُ اين جلالهُ ... والصولجان وصولة الاسيادِ
فلطالما ادّخر الكنوز وطالما ... شاد القصور بمال الاستعبادِ
هيهات ما اغنت فتيلًا لا ولا ... منعت سقوط العرش بالاوتادِ
سَلْ قصر «يلدز» عن امير جنودها ... من قد بغي وطغى على الاعبادِ
خلعته تركيا الفتاة بعزمها ... فتقوّضت اركانُ كل فسادِ
وترنحت منا المعاطف بهجةً ... واهتزّت الارواح في الاجسادِ
ولقد مضى عصر التقهقر والونى ... ولقد تمزق برقع استبدادِ
ولقد بدا العصر الجديد بنوره ... فتألقت اقمار هذا النادي

عصرٌ حماهُ « شوكت » الاسلام محـــمودٌ سليل العرب من بغدادِ
عصرٌ على الاحرار اجمل فاتحٍ درع الوفاق مطية الاحقادِ
فالظالمون تطأطأت اعناقهم واندكَّ حصن الظلم والافسادِ
ان الملوك اذا تمـــادى غيّهم فقـــدوا غرام الجيش والقوّادِ
فلتحيَ تركيا الفتاة وجندهـــا لصفاء عيش ما ترنّم شادِ
وليحيَ سلطـــان البلاد رشادنا وليحيَ عصر النور عصر رشادِ

كتاب اخبار الزمان للمسعودي بين الكتب العربيَّة التي يتأسف العلماء على فقدها تأليف نفيس للعلامة المسعودي لا يزال المستشرقون يبحثون عنه ليطّلعوا على فرائدهِ وقد بشَّرنا جناب مكاتبنا الاديب عيسى افندي اسكندر المعلوف في العدد الثالث من النعمة (ص ٧٦—٨١) أنه اكتشف في دمشق نسخة من هذا الكتاب وصفها وانتقى من فصولهـا شذرات . وقد فرحنا بهذا الخبر ايَّ فرح لكنَّ فرحنـا كان قصيرًا اذ تحقَّقنا انَّ الكتاب المكتشف ليس هو الضالَّة المنشودة وانَّما هو كتاب آخر يُعرف منه ستّ نُسخٍ في مكتبة باريس (عدد ١٤٧٠ الى ١٤٧٢). وقد بحث فيه المستشرقون وتحقَّقوا انه نسب للمسعودي زورًا اطلب في المجلَّة الاسيويَّة الافرنسيَّة مقالة اولى للعلامة كاتر مار (JAP, 1837', 1-31) ثم مقالة ثانية للبارون دي ڤو (ibid. 1879', 133-144) وقد قابلنا بين وصف عيسى افندي للنسخة الدمشقيَّة وما رواهُ هاذان المستشرقان عن نسخ باريس فلم نجد بين هذه وتلك فرقًا والرأي الأرجح انَّ هــذا الكتاب مختصر من تآليف المسعودي لمؤلف مجهول وهو يسمَّى ايضًا مختصر العجائب والغرائب. امَّا كتاب اخبار الزمان للمسعودي فكتاب ضخم في ٣٠ مجلَّدًا ولعلَّ منه نسخة غير كاملة في خزائن الاستانة وقد اختصره المسعودي اختصارًا اوَّلًا فدعاهُ الاوسط وهو ايضًا مفقود واختصرهُ بمروج الذهب المعروف

الجبن النباتي ما كنَّا ندري انَّ الجبن يُستخرج ايضًا من النبات وقد وقفنا على مقالة مطوَّلة لاحد الآباء اليسوعيين المرسلين الى الصين يصف فيها جبنًا يستخرجه الصينيُّون من اللوبياء ويتخذون به بدلًا من جبن المواشي الذي هو قليل في تلك البلاد وهم يأخذون اللوبيا فينقعونها مدَّة اثنتي عشرة ساعة ثم يكبسونهـا تحت رحى فتصبح كمعجون اشبه بالزبدة الطريَّة. ثمَّ يعصرون المعجون في نسيج من كتَّان

فيسيل منه سيّال ابيض يدعونه حليب اللوبيا فيشربونه بعد اغلائه · واذا ارادوا ان يصطنعوا الجبن اغلوه ويجعلون فيه انفحةً من الجص فيتجمّد الحليب ويصير جبناً فيدعونه كجبننا · وقد حلّله احد الآباء الكيمويين فوجده صالحاً للغذاء وان كان طعمه غير لذيذ

أيّهما ؟ في وصفنا (ص ٣١٢) لكتاب تاريخ اسفار العهد القديم في الكنيسة اليونانيّة والكنيسة الروسيّة بيّنا ان الروم الارثدكس في بلاد الشام يقبلون كالغربيين الاسفار الثانويّة كسفر طوبيا ويهوديت واستير والحكمة وابن سيراخ والمكابيين ويعتبرونها كأسفار موحى بها من الله ليس بينها وبين بقيّة الاسفار المقدّسة فرق البتّة وذكرنا انّ الروم في سنة ١٨٧٠ طبعوا في المطبعة الوطنيّة هذه الاسفار لمّا رأوا التوراة البروتستانيّة خاليةً منها وذلك برخصة بطريركهم ايروثيوس · واليوم رأينا في مجلّة النعمة في عدديها الثاني والثالث مقالة واسعة ينكر صاحبها قانونيّة الاسفار الثانويّة ووحيها وهذه المجلّة تُطبع ايضاً برخصة السيّد البطريرك الحالي فبقينا مرتابين لا ندري ما هو ايمان الكنيسة الارثدكسيّة في هذه الاسفار وأيُّهما الصادق من الكاتبين · وهي مسئلة خطيرة لا يمكن السكوت عنها وان شاء الله نعود الى هذا مرّة أُخرى

شهادة بروتستاني في المرسلين الكاثوليك جاء لندن مؤخّراً احد كبار العمّال الانكليز في الصين السير روبرت هرت (R. Hart) المدير العموميّ على الدواوين الصينيّة وهو بروتستاني فدعتهُ احدى الجمعيّات الانكليزيّة في ليدس (Leeds) الى ناديها وطلبت اليه بان يخطب في الصين واحوالها . فاجاب الى دعوتها وبعد ان ذكر اعمال المرسلين البروتستانت في تلك البلاد هتف قائلاً : « وان سمح لي الحضور بان أصرّح عن فكري لفعلتُ مع علمي بان كلامي لا يروق لدى كثيرين منكم · لا يمكنني ان اضرب الصفح عمّا يقوم به الكاثوليك الرومان من الاعمال العظيمة في الصين · اني وجدت بينهم تلامذةً امناء للسيّد المسيح لا يبلغ احد مداهم في بذل الذات والكفران بالنفس · انّ رسالاتهم تأتي بالاثمار الطيّبة فانّهم ينشرون في كل مكان اسم فادينا السيّد المسيح ومرسلوهم لا يألون جهداً في جمع اللقطاء وتربية اليتامى وخدمة كل البائسين · وجمعيّاتهم كلّها منظّمة احسن نظام لأنّهم يتفانون في الخير العمومي دون صوالحهم الخاصّة · وكلّهم ماشون اليد باليد لا يرون الّا الغاية فاذا عملوا او

[illegible] تدبيرهم يضحكون
[illegible] كثير من السامعين
[illegible] البروتستانية المسماة
جريدة الصين (Gazette [illegible]

[illegible] تاريخ سولو [illegible] النصرانية (ص ٥٠٥) ذكرنا الدكتور نجيب صليبي اللبناني [illegible] لجزيرة سولو [illegible] من الانكليزية وطبعهُ في مصر وكنا روينا ذلك على علاته عن جريدة مصرية. فاستلفت نظرنا جناب الصيدلي القانوني مراد افندي البارودي الى الصواب فارانا الكتاب واذا هو تاريخ موسَّع بالانكليزية لبعض جزائر الفيلبين كرزو ومندناو وسولو الفهُ الدكتور نجيب صليبي وضمَّنهُ من المعلومات والفوائد ما أُعجبت بهِ دولة الولايات المتحدة وطبعتهُ على نفقتها وقد استفاد جناب المؤلف في وضع تاليفهِ من عدَّة مخطوطات اسلاميَّة عربيَّة وغيرها وجدها في تلك البلاد ورسم صورها فجاء كتابهُ من الطُرَف التي قلَّما تجد لها مثالًا بين الكتبة الغربيين فضلًا عن الشرقيين

المتفلسف الكاذب — كان احد وزراء الانكليز يقول: ليس من آفة اعظم من طبيب جاهل ومن متفلسف كاذب فانَّ ذاك يفتك بالابدان وهذا يلعب بالعقول. امَّا الاطبَّاء الجهلاء فلا احد منَّا الَّا بلغهُ خبر البعض منهم. امَّا المتفلسفون الكذبة فقد ظهر منهم غير واحد لاسيما بعد الاعلان بالدستور وأكثرهم لغطًا وابلغهم قحة المستى امين ريحاني فانَّ وراء ريحانهِ ريحًا وبيئة أعداهُ بها بعض ملاحدة اميركا فكان وهو في تلك البلاد يجاهر بمعاداة الدين والآداب. ولمَّا رأى باب الشرق قد انفتح جاءنا ينفث في ظهرانينا ذلك السمَّ الناقع فتراهُ يخطب في كل نادٍ ويكتب في كل جريدة سيَّارة بلا هيبة ولا حياء فيتظاهر بالفلسفة وليس هو الَّا ثرثارًا خطلًا ولو نقدنا كل مقالة من مقالاتهِ او خطبة من خطبهِ لظهرت سفسطتها لكل ذي عين. وقد اخذنا العجب انَّ صاحب النصير بعد حفظهِ مدَّةً خطَّة التحايد عن الكتابات التي تمسُّ الدين اثبت للريحاني تلك المقالة التي شتم فيها سيِّدة لبنان وجرح احساسات اهل الجبل. واعجب من هذا انَّ جريدة كاثوليكيَّة كالاحوال دوَّنت لذلك السفيه مقالة في عددها ٥١٠٩ دعا فيها الكاتب الحكومة لتهذيب الاحداث «الى ان تباشر تأسيس

المدارس الوطنيّة العموميّة الاجباريّة المجانيّة دون التفات الى صبغة دينيّة ، وهذه هي بالتمام مبادئ الماسونيّة التي طالما ردّت عليها جريدة البشير وزيّفتها مبيّنة ما وراء ذلك من فساد الآداب وخراب الاوطان

أسئلة وأجوبة

س سُئلنا عن قوانين الكنائس الشرقيّة في امر الدفن الكنسي أتحرم منهُ احدًا وهل يُحرم منهُ المنتحرون

الدفن الكنسي

ج انَّ قوانين الدفن الكنسي في الكنيسة اللاتينيّة مقرَّرة تجدها في كتب اللاهوت الادبي والحق القانوني ورسوم كهنة الرعايا . وعلى موجب هذه القوانين يُحرَم من الدفن الكنسي غير المؤمنين كالوثنيين واليهود والهراطقة والمنفصلون عن طاعة رؤساء الكنيسة والاطفال غير المعمَّدين والذين يموتون انتحارًا فان سمح لهم الوقت وتابوا عن خطيئتهم دُفنوا دفنًا كنسيًّا دون احتفال . وكذلك يُحرم من الدفن الكنسي الذين يموتون محرومين والذين ينكرون قبول الاسرار قبل وفاتهم والمشتركون بالشيع السريّة كالماسون اذا لم يجحدوا تلك الشيع والذين يموتون في البراز فكل هؤلاء لا يُقبرون في ارض مقدَّسة مع المؤمنين ولا يُصلَّى عليهم . وهذه القوانين مرعيَّة كلها في الطقوس الشرقيَّة الكاثوليكيَّة كما ترى في تاريخ الحق القانوني في الكنيسة اليونانيّة للكردينال پيترا (Pitra: *Juris Eccl. Graecorum Historia*) لاسيما عن المنتحرين (ج ١ ص٦٣٩) وفي المجمع اللبناني (الطبعة الحديثة ص ١١٤) وفي مجمع الشرفة للسريان (الطبعة اللاتينية ص ١٢٨) وفي مجمع الاقباط (ص ١٣١) . وهذه القوانين جارية ايضًا في كنائس الارثذكس والروسيين كما ترى في كتاب شرائع الكنيسة الشرقيَّة لاسقف زارا المدعو نيكوديموس ميلاش (Mi- LASCH UND PESSIC: Das Kirchenrecht p. 685) فهناك يذكر الحق القانوني الجاري الى اليوم في الكنيسة الشرقيَّة الروسيَّة بخصوص الدفن ويعدّد الذين ذكرناهم آنفًا الّا الماسون ويضيف اليهم المحكوم عليهم بالموت الشرعي ل.ش